

الهيئة للصّرية العامة للتأليف والنشر

المكتبة
الثقافية
العدد ٢٤١

مشكلة اليهودية العالمية

دراسة تحليلية لأراء المؤرخ
العالمى آرنولد توينبى

تأليف

فؤاد محمد شبل



اهداءات ٢٠٠١

أ.د. محمد دياب

جراح بالمستشفى الملكي المصري

المكتبة الثقافية

٢٤١

مشكلة اليهودية العالمية

دراسة تحليلية لأراء المؤرخ
العالمى آرثر لورينج

تأليف

فؤاد محمد شبل

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

١٩٧٠

الاهداء

الى ولدى الشهيد سعيد

فى اكرم جوار

تقديم

ثمة واقعتان تجابهان الباحث فى الشئون اليهودية عامة والمسألة الصهيونية بصفة خاصة :

الاولى - سرد اليهود تاريخهم من وجهة نظرهم البحتة وحدها . ولقد سلم العالم المسيحى - بالذات - بصدق هذا السرد كما ورد بالعهد القديم (التوراة) . بل ويعتبره رجال الدين المسيحى كلمة الله ، من ينكرها كافر . يَبْوءُ بغضبه تعالى وسخطه . أما الاسلام فيدفع التوراة بالتحريف والتزييف ، فليس لها فى النفوس الاسلامية أى تأثير . وتفرغت عن هذه الحقيقة لعنة ما برحت تلاحق أعداء اليهود التاريخيين من : فلسطينيين وفينيقيين وبابليين وموآبيين وسوريين ويأتى المصريون وملكهم فى مقدمة هذه القائمة . ولو كانت هذه الشعوب قد أوتيت لجاج اليهود وتبجحهم ، لتغيرت المفاهيم الى ادعاءاتهم .

على أن المؤرخين المعاصرين يتجهون الى بحث التاريخ اليهودى على ضوء التمهيص العلمى المدعم بما تسفر عنه الكشوف الأثرية من وقائع بينات .

الثانية - سيطرة فكرة شعب الله المختار على أذهان

اليهود طوال السنين والأحقاب فما بقية العالم في عرفهم
الا أنواع منحطة من البشر تجهل شريعته الرب ، ويطلقون
على أفرادها لقب « الأميين » ازدراء واحتقارا . واليهود
قد تردوا في عبادة ذاتهم الفسائية . فانهم قد اعتنقوا
فكرة وحدانية الرب وقتما أعرضت عنها شعوب كثيرة وفي
طليعتها مصر التي كان حاكمها الملهم « أخناتون » أول من
نادى بها . ويقرر العلامة اليهودي « سيجموند فرويد »
في كتابه الطريف « موسى والوحدانية » ان أخناتون هو
الذي لقن عقيدة التوحيد .

لكن اليهود بعد أن اعتنقوا عقيدة التوحيد الخالدة ،
تركوا لأنفسهم العنان لتستهويهم حقيقة ناقصة : نسبية
وموقوته . ومدار تلك الحقيقة الناقصة اعتبارهم السمو
الروحي الذي بلغوه وقتا ما - امتيازا خلعه الرب عليهم
بموجب عهد أبدي يجعل منهم شعب الله المختار . فكان
أن أضلتهم الحقيقة الناقصة فأردتهم في خطأ مميت
وانحرف بهم احتضانهم صفة شعب الله المختار إلى العقم
الفكري .

وتبحث هذه الدراسة الموجزة المشكلة اليهودية على
هدى آراء المؤرخ العالمي أرنولد توينبي ، راجيا أن تؤدي
رسالة المكتبة الثقافية .

والله تعالى أسأله العون والتوفيق

فؤاد محمد شبل

الفصل الأول
طابع الناصح اليهودي

١ - نسبية التاريخ اليهودى

يعتبر اليهود غيرهم من شعوب العالم أقل منهم منزلة ، فانهم هم الشعب المختار أما شعوب العالم فهم فى مركز منحط يطلقون على أفرادها كلمة « الأميين » : هم بتعبير الشاعر البريطانى « كبلينج Kipling » سلالات دنيا لا شريعة لها .

وتقبلت الكنيسة المسيحية دون أدنى مناقشة تفسير اليهود لتاريخهم كما ورد فى التوراة ، بما تضمنه بين طياتها من المطاعن ضد الشعوب التى احتكوا بها كالفينيقيين والفلسطينيين والأدوميين والموابين والمعموريين والدمشقيين . وانفرد اليهود فى هذا الميدان بأقدامهم على رفع سجل تاريخهم الى منزلة التقديس ونجاحهم نجاحا لا يبارى فى ايهاام مئات الملايين من البشر على مدى الأحقاب والعصور بأن تاريخهم كتاب مقدس : مصين من لا يصدقه أو يناقشه علمية عقاب الله فى الدنيا والآخرة . ومن الناحية الأخرى لا يوجد لأعداء اليهود القدامى من ينهض للدفاع عن قضيتهم ، الا أصوات العلماء والباحثين الخافتة .
والحق ، تعتبر المذاهب المسيحية على اختلافها التاريخ اليهودى تاريخا مقدسا ، حتى ظهور السيد

المسيح • ومهما يكن نصيب الفرد المسيحي من الاستنارة الفكرية ومقدار تحرره الذهني ، فيصعب عليه بمكان أن يتخلص من التراث اليهودي في المسيحية لأنه كامن في شعوره الباطني ويوجه مسار تفكيره بالتالي • فإذا كانت الكشوف الأثرية تهدم ادعاءات اليهود وتلقى أضواء صادقة على المجتمعات الأخرى ، فما برحت جمهرة المسيحيين تأخذ التاريخ اليهودي كما ورد في التوراة قضية مسلما بها ، وإن تأثرت كثيرا بعداء اليهودية للسيد المسيح وبفكره أن الله قد وسع عهده فأصبح يشمل البشرية بأسرها عوضا عن شعب بالذات ، وأن رسالة اليهودية قد استنفدت بظهوره عليه السلام •

لكن تشبث اليهود بفكرة أنهم الشعب المختار ، فاقتضاهم عجزهم عن الاستجابة لتحدي ظهور المسيحية ثم الاسلام الى التقوقع روحانيا وفكريا • فلا شبهة في أن المسيحية والاسلام يعتبران أهم حدثين في التاريخ ، ولولا ظهورهما لعاشت اليهودية في ظل وثنية هلينية مثلما تعيش اليوم بقية البارسيين من أتباع زرادشت في الهند بين ظهرائي وثنية هندية • وعلى الرغم من عداء اليهودية للمسيحية والاسلام ، فقد أضفى ظهورهما عليها أهمية واعتبارا ما كانت لتحظى به لولاهما ، بل لقيض للجماعة اليهودية أن تعيش في ظل حجب الغموض والابهام لا يباي أحد بها • وبفضل ما أخذته الديانتان عن اليهودية من بعض المبادئ ما برحت اليهودية منتشرة في العالم ولكن

كفكرة ثقافية ، مثلها فى ذلك مثل الهلينية التى لا تزال تعيش ثقافياً بفضل تسلسل طائفة من آراء الفلاسفة اليونانية الى اللاهوت المسيحى أساساً ، والى الفلسفة الاسلامية .

وفى عدا ذلك ، تعتبر اليهودية بقية حضارة بائدة هى حضارة المجتمع السريانى (مجتمع الشرق الأوسط القديم) تخلقت عنه شذرات ثلاث : - اليهودية ، السامرية ، البارسية . ويعتبرها الباحث المدقق مجرد جماعات متحجرة تعزى نفسها على تحجرها الفكرى وتقوقها الروحانى ببث الايمان فى نفوسها بأنها شعوب مختارة تسمو على بقية شعوب العالم .

وانه وان أسهم اليهود ثقافياً فى الجماعات التى أقاموا بين ظهرانيها ، فباعتبارهم أفراداً فى تلك الجماعات استجابوا لتحديات مجتمعهم واستوعبوا ثقافته فأمكنهم أن يساهموا فى نهضته أسوة بغيرهم من أبناء الملل والنحل الأخرى .

والى الصدمات العنيفة التى أصابت النفسية اليهودية ، يرجع تحول العقيدة اليهودية القديمة ، الى ما أصبحت عليه بعد ذلك من تحجر وكراهية العالم لليهود بالتالى . وفى طليعة تلك الصدمات ما كابدته اليهودية على أيدي

- بنوخ نصر فى ابان العقد الثانى من القرن السادس قبل الميلاد .

٢ - أنطيوخس الرابع خلال العقد الثاني من القرن السادس قبل الميلاد .

٣ - الرومان أثناء الحروب اليهودية الرومانية التي جرت خلال أعوام ٧٠/٦٦ و ١٣٢/٥ وكان للصراع الذي نشب بين الرومانيين واليهود في ابان القرنين الأولين الميلاديين تأثير على تاريخ اليهودية أقوى من تأثير ظهور المسيحية . فلقد دفع اليهود للعمل الجدى للحفاظ على ذاتيتهم . فكان أن أتم أحبارهم صياغة شريعة التوراة المكتوبة وتفنن التعليق على التوراة (أى الميشنا) وإنتاج تعليق آخر يعرف بـ « الجمارة » ومن الميشنا والجمارة يتألف التلمود .

ولا نجد فى الميشنا والجمارة ذكرا لاسم السيد المسيح أو للإنجيل . لكن نثر على كلمات فى التلمود تذكر السيد المسيح فتفترى بأنه ثمة زواج بين والدته مريم حلاقة السيدات ورجل يدعى بايوس بن يهودا . لكنها عشقت رجلا يدعى بانديراداب عيسى - كما تقول - على السخرية من حكماء اليهود ويدعى التلمود أنه نادى بربوبيته وأنه سيصعد للسماء ثم ادعى التلمود أنه حوكم فى اللد وأعدمه اليهود رجما بالحجارة ولم يشترك الرومان فى تنفيذ الاعدام ولا يذكر التلمود حرفا واحدا عن لقب المسيح مكتفيا باسم عيسى . ويطلق التلمود لفظ « مينيم » على اليهود المنتصرين ، ويبدى خشيته من استفحال شأنهم مما يهدد كيان اليهود واعتبر المسيحية نجلة يهودية مارقة .

واتخذت اليهودية شكلها المحدد خلال مائة وخمسين سنة تقع بين جيل الحاخام « يوان بن زكاي » واقامة السنهد ريم (المجلس اليهودي القديم) عام ٧٠ ميلادية . وأقر هذا المجلس شريعة التوراة المكتوبة . ويبدو للباحث أن أحبار اليهود قد عمدوا الى تسجيل تراثهم الروحي والأدبي بعد ما شاهدوا تداعيه بفعل التأثيرات الأجنبية .

ولا مجال هنا للافاضة في عمق تلك التأثيرات وحسبنا القول بأن العقيدة اليهودية قد استوعبت الكثير من أساطير مصر وبابل وحكمتها ومن ثقافات الشعوب المحيطة بها لا سيما الكنعانيون والفينيقيون ، وأخص بالذكر تأثير اليهودية العميق بعقيدة زرادشت : تأثرا يتجلى بالذات في المشابهة القوية بين تعاليم زرادشت وسفر أشعيا الثاني .

٢ - بملأية فكرة الوطن القومي

منذ أن تولى نبوخذ نصر البابلي استتصفا مملكة « يهودا » إبان العقد الثاني من القرن السادس قبل الميلاد ، وهدف اليهود المرحلين الى بابل وسلالتهم يتمثل في الحفاظ على الذاتية اليهودية القومية . فكان أن اعتنقوا فكرة أن يظلوا يهودا في جميع الظروف والأحوال وأن يقاوموا مغريات الحضارات التي يعيشون بين ظهرانيها خشية أن ينجرقوا في تيار الاندماج في مجتمعها فتضيع مقوماتهم

الذاتية ، وأن يصمدوا للمحن التي نواجههم بسبب اصرارهم على الاحتفاظ بذانيتهم المميزة . وذلك الى أن تسنح لليهودى فرصة العودة الى مملكة « يهودا » ويقيم هناك دولة لا تقتصر فحسب على المنطقة التي كانت تشغلها هذه المملكة فى سالف الأيام ، بل تضم كذلك جميع الأراضى التي كونت دولة داود وسليمان . وعندئذ - كما يقول اليهود - يكونون قد نجحوا فى الحفاظ على ذاتيتهم القومية . اذ يستلزم الحفاظ على الذاتية القومية توطن رقعة محددة من الأرض وهذه نتيجة انبعثت من اختراع الزراعة بما تعنيه من اقامة الناس فى أرض يفلحونها ويسـتقرون فيها .

والاستقرار فى أرض محددة ، لا يعتبر من الناحية العلمية شرطا أساسيا للحفاظ على الذاتية القومية . فان شعوبا تشتغل بالتجارة والصناعة ولا تستحوذ على مناطق محددة من سطح الأرض قد استطاعت الحفاظ على ذاتيتها القومية بفضل ترابطها الثقافى والايديولوجى ، بل وحافظت عليها وهى بعيدة عن مواطنها الأصلية . ويعتبر اليهود أنفسهم مثالا بارزا ، اذ أمكنهم الحفاظ على مقوماتهم الذاتية منذ تشتتهم وعلى الرغم مما تعرضوا له من محن جرأ عليها سوء مقاصدهم ، وعلى الرغم من زوال دولتهم بفلسطين .

وتجلت أولى محاولات اليهود للاستقرار فى فلسطين ،

بعد خمسين عاما من تدمير نبوخذ نصر مملكة « يهودا » ، وترحيل اليهود الى بابل ، فان قورش مؤسس الامبراطورية الفارسية قد أذن لهم بالعودة الى فلسطين . اما آخرها فقد تمت في أيامنا هذه .

وجدير بالذكر أن الغالبية العظمى من اليهود المشتتبين كانوا يصدفون في جميع الأحوال عن الاستقرار في دولة يهودية تقام بفلسطين ، ويؤثرون الإقامة بمواطن تشبثتهم التي استقروا فيها اذ لم يستجيب منهم لنداء زعيمهم زور بابل خلال الفترة ٥٣٩ - ٥٣٨ قبل الميلاد بالعودة للإقامة بأرض مملكة يهودا سوى عدد قليل . كما استجاب عدد أقل لنداء العودة عام ٤٥٨ قبل الميلاد بقيادة عزرا ، وعام ٣٨٤ قبل الميلاد بقيادة نحميا . ذلك لأن اليهود لم يقتصروا خلال الخمسين سنة التي أمضوها في الأسر بالبابل على إيجاد نوع من الحياة وابتكار مجموعة طريقة من النظم لحياتهم في التشتت ، بل لقد امتزجوا بنمط حياتهم هذا وواءوا بين أنفسهم والبيئة التي استقروا فيها بحيث نجحوا في الحفاظ على ذاتيتهم القومية ، الأمر الذي صدهم عن العودة الى موطن مملكتهم القديمة . بل ان اليهود الذين غادروا بابل واستقروا بفلسطين اجتذبتهن مدن العالم الهليني المزدهرة ، فساروا في ركاب الفاتحين الفرس مخلفين وراءهم مملكتهم مستقرين في الممالك الهلينية التي انقسمت اليها الامبراطورية الفارسية بعد سقوطها .

وكونوا بها جاليات ضخمة كانت جالية الاسكندرية المصرية
أهمها تتلوها جالية روما • ولم يكن مبعث هجرة اليهود من
موطنهم بفلسطين الى مدن العالم الهليني التشتت الاجبارى
(أى ال Diaspora) بل الهجرة الاختيارية بدافع
المغريات الاقتصادية •

وها هنا يطفو الى ذهن الباحث وضع يهود الولايات
المتحدة ويهود العالم الغربى عامة لمشابهة التشتت اليهودى
فيها بتشتتهم فى بابل منذ القرن السادس قبل الميلاد حتى
القرن الثالث عشر المسيحى • اذ يتصرف يهود أمريكا تجاه
دولة اسرائيل مثلما تصرف أجدادهم يهود بابل من قبل •
فاليهود الامريكيون يتفجرون غيرة وحماسة لتدعيم الدولة
اليهودية فى فلسطين بالتبرع لها بالأموال وبالضغط على
السادة الأمريكين - ماديا ومعنويا - لمساندة اسرائيل ضد
العرب • فى حين لا يتحمس يهود أمريكا اطلاقا لمغادرة
أوطانهم والاستقرار فى أرض الميعاد • بل ان الاحصاءات
لتنبئ أن يهود اسرائيل يغادرونها اذا ما أتيحت لهم
فرصة التوطن بالبلاد الأمريكية أو استراليا •

وتسفر الدراسة التاريخية عن حقيقة لا تمارى مبناها
أن أية جماعة يهودية أعيد توطينها منذ فترة ٥٣٩/٥٣٨
قبل الميلاد (أى بعد فك قورش الفارسى اسار يهود بابل)
حتى وقتنا الحاضر قد عجزت عن أن تعيش بمواردها

الخاصة ، ولم يقيض لها البقاء الا فى ظل حماية يهود البلاد
الأخرى (أى يهود التشتت وفقا للاصطلاح اليهودى)
وبفضل رعايتهم وحديثهم عليها .

ويقينا ، ما برحت الجماعة اليهودية العالمية منذ الأسر
البابلى حتى اليوم ، حصن اليهود وترسانتهم ، وبدونها لن
يقيض للجماعة اليهودية بفلسطين البقاء قط . وينبئنا
التاريخ أن الجماعة اليهودية خارج فلسطين (أى التشتت)
قد عاشت وازدهرت على الرغم من تدمير الجماعة اليهودية
فى فلسطين خلال سنوات ٧٠ ميلادية و ١٣٥ ميلادية
و ٥٨٦ قبل الميلاد . والعكس غير صحيح ، بمعنى أن
الجماعة اليهودية بفلسطين لا يتأتى لها أن تعيش من غير
مساندة اليهودية العالمية . فبفضل ما بذلته الجماعات
اليهودية من المساعدات المالية وما أسلته من دعم
دبلوماسى ، توفر لمملكة المكابيين الاستقلال خلال ثمانين
عاما (١/١٤٢ قبل الميلاد - ٦٣ قبل الميلاد) وتيسر
لمملكة هيرود الكبير أن تعيش - تحت رعاية روما - سبعة
وثلاثين عاما .

وما انفكت الجماعة اليهودية بفلسطين تعيش عالة على
يهود البلاد الأخرى ثقافيا وروحانيا : فان عزرا اليهودى
البابلى هو الذى جعل من التوراة السلطة الحاكمة فى
الحياة اليهودية . ولم ينجب يهود فلسطين عالما أو باحثا
يهوديا ذا شأن ، عكس يهود الجماعات الأخرى الذين

انجبوا رجالا مبدعين بفضل تأثيرات البيئة التي عاشوا في
كنفها ولفحتهم اشعاعاتها الحضارية • وليس وجود جماعة
يهودية بفلسطين هو الذى صان الذاتية اليهودية ، بل
حافظت عليها الجماعات اليهودية المنتشرة فى أنحاء العالم •

فمن ثمة يستبين للباحث أن مشيئة البقاء كجماعة
حيثما كانت ومهما كانت الظروف ، ما برحت منذ عام ٥٨٦
قبل الميلاد تعلو لدى اليهود على ارادة العيش كجماعة
فلسطين فى ظل دولة يهودية : سواء تألفت تلك الدولة
بفضل انبعاث مسيح منتظر يجعل منهم سادة العالم وبقيته
عبيدا ، أو أن يقيمها نفوذ يهود التشتت بالتحالف مع
الامبريالية والرجعية •

٣ - جذور الأطماع اليهودية

ما كان فى وسع اليهود بعد ما ابتلعتهم الامبراطوريتان
البابلية والفارسية وتفرقوا هباء بين شعوب الأرض ، أن
يأملوا - باستخدام القوة - فى استعادة الحالة التى كانوا
عليها قبل تشتتهم ، أى وقتما كانت مملكة « يهودا » تحيا
حياة اقليمية مستقلة • واذا كانت الحياة تبدو سقيمة
دون أمل يبعث فى الانسان الفاشل القدرة على انتشال نفسه
من حاضر لا يرتضيه ، فقد تطلع اليهود فى منقاهم ببابل
الى اقامة مملكة داود ، ولكن فى الصورة التى تقع تحت

أبصارهم والتي بانوا يآلفونها وهم فى مفاهيم : صورة لا نظير لها فى الماضى انواقى لمملكتهم . اذ تجسدت تلك الصورة فى 'مبراطورية عالمية واسعة الأرجاء يسيطر فيها عنصر واحد من سكانها ، وهو فيها السيد الأمر المطاع وبقية عناصرها عبيد أو أشباه عبيد . وبالأحرى ، تطلع اليهود لاقامة مملكة من ذلك النوع الذى عرف فى عالم الامبراطوريات الكبرى ، وهفت نفوسهم الى أن تصبح اورشليم عاصمة العالم ويكونوا هم فيها العنصر المسيطر .

ولقد عقد اليهود الآمال بعد تدمير نبوخذ نصر مملكتهم - المرة بعد الأخرى - على إقامة دولة يهودية جديدة . وذلك كلما أتاح لهم تطور مجريات السياسة الدولية ومهما تضاءلت أمامهم فرص النجاح . ومصادقا لهذا الرأى ، شاهدهت دورة الفوضى القصيرة الأمد التى مرت بالامبراطورية الفارسية - وتقع بين وفاة قمبيز وتولى دارا الحكم - محاولة زور بابل اليهودى الفاشلة حوالى ٥٢٢ ق . م إعادة تشييد مملكة داود . كذلك ، خدع اليهود بانتصار المكابين خلال الفترة الواقعة بين انحلال الدولة السلوقية ووصول الفيالق الرومانية سوريا . فكان أن طمس سراب هذا النجاح الغانى عقول اليهود فانساقوا وراءه بحيث أنهم ارتضوا لأنفسهم - مصادقا لما ورد بالاصحاح الثانى من سفر أشعيا قبل ذلك بأربعمئة سنة - أن يطرحوا جانبا تقليدا قديما أنزلوه فى نفوسهم مكانا قدسيا : تقليدا يحتم على مؤسس الدولة الجديدة أن يكون

من ذرية داود . على أن تجربة اليهود انقاسله لاقامة دولة مصطنعة فى فلسطين خلال الفترة ٦٦ - ٧٥ ميلادية لم يحل بينهم وبين عوايه الدارته بهم ونردبهم فيها مره حرى أثناء فترة ١١٥ - ١٧ ميلادية نم انزلاقهم فيها بعد ذلك خلال فترة ١٣٢ - ٥ ميلادية .

وظيل اليهود ستمائة سنه يسعون لاقامة دولة بفلسطين باستخدام القوة المجردة فكان الاخفاق حليفهم وأورثتهم المحاولة العقيمة الدمار والتشتت فاستبانت لهم استحاله تنفيذ حلمهم السقيم فى اقامة امبراطورية باستخدام بطاقتهم البشرية . وههنا تطورت شخصية المؤسس المنتظر للمجتمع اليهودى العتيد فأصبح لقبه « المسيح » عوضا عن ملك . وليس الملك مسيحا بشريا لكنه الاله نفسه يتنازل عن مكانه السامى ليتولى دور « المخلص » لشعبه المختار بعد أن وضحت استحالة تحقيق الخلاص بجهود هذا الشعب وحدها . ومناطق الخلاص اخضاع العالم بأسره لسيطرة اليهود .

وهكذا سعى اليهود لالقاء عبء تنفيذ مشروع مستحيل من على كواهلهم الذاتية على كاهل الهى تصورى يقوم هو شخصيا بتنفيذ المشروع لصالح اليهود على حساب بقية شعوب العالم وأجناسه .

ويدفعنا هذا للبحث فى تطور طبيعة الاله عند اليهود لاتصالها الشديد بصياغة الفكر اليهودى - وبالأحرى اتجاهاته - على الصورة التى نشاهدها فى الوقت الحاضر .

الفصل الثاني

طبيعة الإله عند اليهود
وتأثيرها الفكري

يتبين للباحث من استقراء المصنفات التي ورثها اليهود عن مملكتي اسرائيل ويهوذا والشروح التي أضيفت اليها ، مدى التغيير الجسيم الذي طرأ على طبيعة « ياهوى » أو فكرة الاله عند اليهود . ولقد اقتضى تصنيف الأدبيات الدينية اليهودية حوالى ١٤٠٠ سنة تمتد من القرن العاشر قبل الميلاد وقتما شرع أحبار اليهود فى تصنيف أسفار التوراة ، حتى استكمال التلمود البابلى فى ابان النصف الثانى من القرن الخامس الميلادى أما التلمود الفلسطينى فاستكمل فى الجليل خلال الربع الاخير من القرن الرابع الميلادى .

وليس من المستغرب تطور فكرة الاله على مدار هذه الفترة الطويلة من التاريخ اليهودى ، وأجهوا خلالها أحداثا ضخمة وكابدوا تغييرات بعيدة المدى : سياسية واجتماعية وثقافية ومروا بتجارب خطيرة أثرت فى تكوينهم العقلى أيضا . بيد أنه مهما يكن من أمر جسامة تلك التغييرات سيطرت على العقلية اليهودية منذ انبعائها فكرة عن طبيعة الهم لم تتبدل حتى الآن ولهذه الفكرة بعدان أساسيان :

البعد الأول - يصور الهم فى صورة انسان . ويتطلب هذا الكائن الانسانى الالهى من أتباعه طاعة عمياء وولاء صادقا كاملا . ولا تختلف وجهة النظر هذه بشأن طبيعة اله اليهود ذات المنحى الانسانى بين مثقف وجاهل ، قديما وحديثا . ويعثر عليها الباحث بين القبائل

الاسرائيلية البربرية فى سالف الأيام ، ولا يسلم من
الايمان بها فلاسفة اليهود المحدثين .

ولم يحدث قط أن تصور اليهود ربهم فى صورة
تتنزه عن التجسيد الانسانى ، حتى وقتما قرنوه بالحقيقة
الروحية المطلقة . فرغما عن تطور فكرة الاله لديهم من رب
حرب للقبيلة الاسرائيلية ، الى الاله الواحد الحق للبشرية
جميعها وللكون بأسره ، ظلت فكرة اليهودية القديمة عن
الشخص الالهى المتغطرس الحقوق قائمة فى اذهان اليهود
وعقلهم الباطنى .

وبالاحرى ، ليست الوجدانية اليهودية ميتافيزيقية
الطابع (أى غيبية المنحى) ، لكنها معنوية أى انسانية
المبنى والجوهر .

البعد الثانى - ثمة عنصر هام من الدوام يعثر عليه
الباحث فى ثنايا تطور اله اليهود « ياهوى » ولا يبرح
هذا المعنى قائما بين تضاعيف التغيرات الرئيسية التى
طرات على طبيعة ياهوى .

لكن يختلف التغير اختلافا بينا باختلاف العصور : -
فأولا - اتخذت التغيرات الحاسمة سبيلها فى
غضون فترة لا تجاوز القرنين تمتد من جيل النبي عاموس
فى القرن الثامن قبل الميلاد حتى جيل أشعيا الثانى فى
مطلع غزو قورش للامبراطورية البابلية الجديدة . ويعتبر
هذا العصر قطب رحى التاريخ الذى تبلور فيه معنى

ياهوى ويصدق على هذا العصر المعنى القائل بأن المعرفة
حصيلة المكابدة . فهذه الفترة قد اتصفت بالتحول المبدع
للنظرة الروحية لحياة كل من اسرائيل ويهودا الروحية ،
الا أنها قد حفلت كذلك بالتجارب المريعة التى مر بها شعبا
المملكتين اليهوديتين وبالثورة الاجتماعية والاقتصادية التى
اتسم بها القرن الثامن قبل الميلاد . وفى خلال تلك الفترة
فقدت المملكتان استقلالهما السياسى وتحطم كيان اسرائيل
عام ٧٢٢ ق م ويهودا عام ٥٨٦ ق م وانتهى مصير
اليهود الى ترحيل عناصرهم الرئيسية فبدات حينئذ
مرحلة النفي اليهودى .

وعلى عكس أسفار أنبياء القرن الثامن قبل الميلاد
تصور أسفار التوراة الأقدم عهدا رب اليهود « ياهوى »
فى صورة اله حربى اقليمى من النوع الذى يآلفه الباحث
فى أبواب القبائل فى الشرق والغرب حيث كان لكل قبيلة
اله ينصرها فى معاركها ضد أعدائها فكان « ياهوى » رب
حرب ثلاث جماعات عبرانية : اسرائيل ، جوداه ، أدوم .
وطبيعى أنه لا ينتمى رب اليهود بأصله للخصب
والنماء ، اذ انحدر اليهود من الصحراء العربية . ولعله
كان فى الأصل رب احدى قبائل كنعان أو مدين . ومهما
يكن من أمر موطنه الأصيل ، يبدأ سجله التاريخى منذ أن
اتخذته اسرائيل الها سياسيا لها ، ولكن متى بدأ ذلك ؟
تتكلم التوراة عن عهد أقيم بين ياهوى وبين اسرائيل
فى سيناء ، بدأت بمقتضاه رعايته لشعب اسرائيل . ولكن

تذكر التوراة أن العهد قد تم بين ياهوى ويوشع فى ششم
(سفر يوشع آية ٢٤) . وبفضل ذلك العهد أتيح لهم
دخول فلسطين .

وظاهر أن تاريخ العهد لا يرجع الى أبعد من القرن
الثالث عشر قبل الميلاد . لكن أسفار التوراة التى صنفت
قبل القرن الثامن قبل الميلاد تصوره ربا ذا طبيعة همجية إذ
يعد اليهود مقابل ولائهم له أن يملكهم أراض لا يملكها
هو ولا حق لاسرائيل فى الاستحواذ عليها : ذلك لأنها
ملك سكانها الأصليين الكنعانيين . فكان على الغزاة
البدائيين أن يمتشقوا السلاح معتمدين على أن ربهم رجل
حرب (آية ١٥ من سفر الخروج) ذو قوة وأيد يعاضد
شعبه المختار على الفتك ببقية البشرية .

بيد أن صولة ياهوى ذات حدين : - فانه يشيب
صحابته على طاعتهم لأوامره : ونواهيته بالفتك بأعدائهم .
لكنه لا يقل تشبثا بعقاب صحابته على تمردهم وعصيانهم .
وينبئنا سفر القضاة أن ياهوى قد دأب على تسليم شعبه
الى أيدي أعدائه جزاء وفاقا على تمردهم عليه . فان أظهروا
الندم وتابوا توبة نصوحا بعث فيهم مخلصا منهم ينشلهم
من الوهدة التى أرداهم فيها عصيان الرب .

ولا يقتصر وصف التوراة لهذا الرب البدائي بالتعنت
مع شعبه ، اذ تظهره أنه نكد ، متقلب ، مندفع ، أخو
نزوة . وتعدد التوراة أحكامه الجائرة التى لا تعد ولا تحصى

كما تبدى التوراة شدة بطشه بالناس كقوة عمياء لا تبقى
ولا تذر .

فلا بدع وأن تنعكس صفات هذا الرب على عباده
طوال الفترة التي كانوا فيها أقوىاء . فلما أصابتهم النكبة
تلو النكبة وتلقفتهم النعمة بعد النعمة ، واجهوا تحديات
عصرهم باستجابات روحانية وعندما وآتهم فرصة الطغيان
ارتدوا الى ماديتهم مصداقا لما نراه اليوم من أتباع ياهوى
فى اسرائيل .

ومهما يكن من الأمر ، فلقد تمثلت أولى مكابذات
اليهود فى الثورة الاجتماعية والاقتصادية التى أخذت
بتلاييب شعبى اسرائيل ويهودا فى ابان القرن الثامن قبل
الميلاد . وتفسير ذلك أن الاقتصاد النقدى وسبل الحياة
الحضرية قد تسربت الى الريف ومرتفعات كنعان مثلما
بسطت ظلها قبل ذلك على المدن الفينيقية والفلسطينية .
فكان أن انجرفت ثروة الريف الى المدن واستأثرت بالثروة
قلة من السكان بائت تستمتع بأطايب الحياة وكانت القلة
تزداد غنى ورفاهية بفضل عمال المضاربة والربا ويستفحل
فقر الكثرة . وترتب عن ذلك انقسام الجماعة اليهودية
انقساماً معنوياً ، فاندفعت الكثرة الفقيرة تتساءل عن حكم
الرب « ياهوى » فى هذا الانقسام الاجتماعى . لقد كانت
رسالته تتمثل حتى ذلك العهد فى حماية عصبته من عدوان
المجتمعات المعادية ، أما كيف يحمى أكثرية شعبه الساحقة

من افتيات أقليته المسيطرة فهذا ما لم يخطر على بال عباده وأصفياه .

ههنا فى القرن الثامن قبل الميلاد انبعث أنبياء اليهود منادين بأن الرب نصير العدالة والحق ، واقتبسوا ذلك كله من صفات « رع » الاله المصرى خاصة ومن قواعد الديانة المصرية عامة ، وهى ديانة تجعل العدالة والحق (أى ما يطلق عليه معات باللغة المصرية القديمة) دعامة المجتمع الفاضل وعماد الحكم الصالح ومبرر طاعة المحكومين لحكامهم .

ولقد تنبأ أنبياء اسرائيل وقتذاك بأن على بغاة اسرائيل ويهودا اظهار الندم على ما ارتكبوه فى حق جمهرة الشعب ، والتزام الحق والصدق والا فان ياهوى يقابل اساءتهم للشعب بانزال عقابه الصارم على الناس جميعا : حكاما ومحكومين . ولم تجد تحذيرات هؤلاء الأنبياء آذانا صاغية . فكان أن حاقت النكبات والمصائب بالملكيتين . وطفقت كلماتهم تدوى باستمرار فى آذان اليهود المنفيين فأمنسوا بأن مكابذاتهم جزاء وفاقا على مخالفتهم أوامر الرب .

وظاهر أن طبيعة ياهوى قد تغيرت فى نظر اليهود تحت تأثير الظروف : من طاغية تحكمه الأهواء والنزوات ، الى اله قوى عادل .

كذلك شاهد القرن الثامن قبل الميلاد نهاية استقلال

دول العالم السورى - بل وجودها ذاته - على أيدي
الأشوريين بقيادة ملكهم تيجلات بيليسو (حكم ٧٤٧ -
٧٢٧ ق م) ولم تستعد تلك الدول - ومنها مملكتا يهودا
واسرائيل - استقلالها قط . اذ تلا امبراطورية آشور
الامبراطورية البابلية الجديدة ثم الدولة الاخمينية
الفارسية ثم البطلمية المصرية ثم السلوقية ثم الرومانية .
ولقد تباينت معاملة النظم الحاكمة لليهود شدة ولينا ، الا
أنهم - فى جميع الأحوال سواء فى فلسطين أو فى غيرها
من أجزاء الامبراطورية الشاسعة - اقلية تعتبر نفسها
فى منفى .

فلا بدع وقد أصبحت حالة اليهود على ما وصفنا ،
أن تنحدر مكانة الههم السياسية فى نفوسهم الى العدم .
فأصبح يؤرقهم التساؤل عن حقيقة منزلة الههم بين آلهة
الأمم التى يعيشون بين ظهرائها . اذ كان انتصار أمة
فى معاركها دليلا على قوة شكيمة الهها أو آلهتها القومية .
وبالأحرى نظروا الى الحرب بين آشور واسرائيل على أنها
حرب بين اله اسرائيل واله آشور . فلما أبادت آشور
اسرائيل ترتب على ذلك نتيجة منطقية مؤداها أن اله آشور
قد انتزع ياهوى اله اسرائيل عن سلطانه . ويقتضى هذا
منطقيا أن ينصرف ولاء عباد الاله المهزوم الى الولا للاله
المنتصر . أو يجعلوا من الههم القومى تابعا خاضعا للاله
المنتصر مثلما أنهم هم خاضعون لعباده المنتصرين ، بما يعنيه

ذلك من الاقرار بسيادة اله الأمة المنتصرة وتسامية على
اله الأمة المنهزمة . فلا يستغرب والحالة هذه أن يقبل
اليهود على عبادة ما ردوك بعل وعشتار الهى بابل القريين
رغما عن تذر انبيائهم وتوعدهم اياهم بالويل والثبور
وعظائم الأمور .

ومن ثم كان على أتباع ياهوى : -

أما أن يهجروا عبادة اله أجدادهم بعد أن تداعى
سلطانه كاله حرب قبلى .

أو أن يسبغوا عليه صفات تجاوز كثيرا ما أضفاه
عليه أسلاف اليهود المنهزمين .

فلقد كان ياهوى قبل النفى مجرد اله خاص بشعبى
مملكتى يهودا واسرائيل . ولم ينكر هؤلاء السكان حتى
الأنبياء أنفسهم وجود أرباب أخرى لكل منها سلطانه
السياسى الخاص ، ولا يقل أيذا وصوله داخل سلطانه ،
عن سلطان ياهوى على شعبى يهودا واسرائيل . ولما حاقت
المذلة والهوان باليهود أوحى مثقفو الشعبين - أى من
يعرفون بالأنبياء - الى الشعبين بأن هزيمتهم ليست نتيجة
انتصار آلهة الأمم التى أنزلتها بهم ، ولكن نتيجة غضب
ياهو عليهم لعصيانهم اياه . فلم يعد ياهوى ربا لليهود
وحدهم لكنه - وفق رأيهم - رب العالم القوى الفرد
الصمد .

أقصد بأن هذا الاعتقاد العجيب فى قدرة « ياهوى »
قد مد حدود المناطق التى يقيم فيها عابديه ، فقد فرضه
على اليهود الكارثة السياسية التى ابتلتهم بها الدول
الأجنبية ، وقد أكدتها محنة النفى وعززتها تجربة التشتت
والامة . فلقد كان اليهود أثناء اقامتهم فى رحاب المعبد
يؤمنون أنهم فى حضرته وأن تأدية الطقوس الدينية لاتصح
الا فى معبده ، فكان تشريدهم عن مقامهم بفلسطين نذيرا
بضياع ايمانهم بددا لولا صفتا القدرة الكلية والشمول
اللتين أضفيتا عليه : اذ أصبح ياهوى كائنا فى كل مكان .

ـوانبنى على ذلك تحول جوهرى فى التفكير اليهودى
الدينى ، فبعد ما كان يؤمن بالربوبية التشاوبية (ومؤداها
الايمان باله واحد ولكن مع عدم انتفاء الايمان بغيره) أصبح
أشعيا الثانى بعد خمسين سنة من النفى البابلى يؤمن بأن
اله اليهود (أى ياهوى) صاحب الحق المطلق فى ولاء
اليهود له ، وأنه هو الاله الواحد الحق لا شريك له فى
الكون بأسره .

ولكن اذا كان ياهوى هو حقيقة النى جر المصائب
على رؤوس اليهود ، وليس اله من آلهة الامم الأخرى التى
زال اعتبارها - بل وجودها ذاته - من الفكر الدينى
اليهودى وفق التخريج المتقدم ، فلقد تساءل أحبار اليهود
عما دفع باله عقد مع شعبه المختار عهدا أن يوقع بهذا

الشعب النكبات القاصمة وبخاصة وقد آمنوا بأنه إله عادل ، وهم وإن سلموا بأن أقلية منهم قد ارتكبت معصية تستحق عليها العقاب ، لكن قوة هذا العقاب وبشاعته مما لا تتناسب إطلاقاً مع معارضة تلك الأقلية ، أولاً يشكك هذا في عدالة الإله ؟

الفصل الثالث

العصر المصري في اليهودية

١ - شخصية موسى

توحى قراءة التوراة الى البعض بأن الذاتية اليهودية تمتد الى أيام آدم أو نوح . لكن جذور اليهودية لا تبعد وفقا للتوراة الى أبعد من ابراهيم . ويوضح الاستقراء العلمى للتوراة أن العهد قد تم بين ياهوى وبين شعب اسرائيل ، وبمقتضاه اصطفى ياهوى اليهود شعباً مختاراً له على أن يلتزموا بفروض خاصة فى مقابل أن ينيلهم مبتغاهم فى الاستيلاء على فلسطين .

وبالأحرى ، تم العهد بعد خروج اليهود من مصر . لكن اليهود يجعلون من ياهوى اله آبائهم : ابراهيم واسحق ويعقوب ، وان تبين من الأسفار الخمسة ان لفظ «ياهوى» لم يعرفه اليهود الا بعد أن تجلى لموسى فى سيناء وأوحى اليه نصوص العقد بينه وبين الاسرائيليين .

وما اليهود - من الناحية العلمية - الا فرع من الأقوام السامية التى انحدرت من الجزيرة العربية فى ذلك الحين ودفعت سكانها الساميين للبحث عن مغان للعيش فى وديان الأنهار وفى أحضان الحضارتين العالميتين : البابلية والمصرية . ولا شبهة فى أن التطور الذى طرأ على العقيدة

اليهودية بعد خروجهم من مصر يدفع بالباحث لاستقراء
العنصر المصرى فى اليهودية •

وأول ما يطالعنا فى هذا السبيل لفظ « يا هوى »
نفسه • ويقرر أحد كبار مؤرخى العقائد الدينية الاستاذ
البرايت Albright (١) أن لفظ « يا هوى » قد
يكون أول كلمة فى صيغة تعنى « ذلك الذى يحدث ماينبعث
للوجود » • وهذه حقيقة وردت بالمتون الدينية التى شاعت
فى ابان القرن العشرين قبل الميلاد وفى ترانيم المعبود آمون
المصرى بالذات •

وفى موضع آخر يقرر هذا المؤرخ أن موسى قد آمن
بالوحدانية الكاملة ، الا أنه استقى آراءه بأن ياهوى هو
خالق الكون وسيده الأوجد وأنه الاله الفرد الصمد من أفكار
أخناتون التوحيدية التى أثرت فى همج الكنعانيين والمدينين
الذين كانوا ينتشرون فى جنوب شرقى الحدود السورية
لأُملاك الدولة المصرية الحديثة • وإذا كانت عقيدة التوحيد
الآتونية لم تعيش فى مصر طويلا بعد وفاة ملهمها أخناتون
فلا يعنى ذلك زوال تأثيرها من العالم كلية • اذ لا يستغرب
الباحث أن تعيش خارج مصر وأن تدخل فى نطاق عقائد
دينية أخرى • وأصدق دليل يطالعنا أن العقيدة الدرزية
التي نادى بها الحاكم بأمر الله فى مصر لا تزال تعيش حتى

(١) Albright from the Stoneage to bristianity.

اليوم بعد انقضاء حكم مؤسسها بـ ٩٥٠ عاما بين أقوام
يعتقونها في فلسطين ولبنان وسوريا ويخلصون لها .

ناليهود يؤمنون بأن العقيدة اليهودية والشعب
اليهودي قد تكاملا منذ أيام موسى ، لكن تتعارض هذه
النظرية مع الحقائق التاريخية المقررة : انها لتتناقض مع
الأسفار اليهودية ذاتها . وتبين الدراسة العلمية للأسفار
الخمسة أنها مادة مركبة استخلصت من وثائق أقدم منها ،
وانها عمل توليفي انتزع من مصنفات أبعد عصرا . ولقد
تمت عملية التوليف والمزج حتى ثبتت على صورتها الحالية
في التوراة في تاريخ يرجع الى القرن التاسع أو العاشر
قبل الميلاد ، أي بعد عصر موسى التاريخي بأربعمائة
سنة .

وموسى شخصية تاريخية . وما برح اسمه يثير الجدل
الشديد بين علماء التاريخ والدين . فظاهر أن اسمه
هو المقطع الثاني لاسم مركب مثل « اح موسى » (أي أحمس)
وفقا للنطق المتعارف عليه نقلا عن النطق اليوناني (ورع
موسى) (أي رمسيس) و « تحوت موسى » (أي تحتمس)
وطبيعي أن لا يرضى الاسرائيليون أن يحمل بطلهم القومي
اسما مصرياً صميماً بسبب دافع قومي غلاب مؤداه أن هذا
البطل حقيقة تاريخية لا يمكن تجاهل وجودها واسمها
بأية حال من الأحوال .

ومن الناحية الأخرى ، فاذا كان بطل اليهود القومي

يحمل بالفعل اسما مصريا مركبا ، فانهم قد أسقطوا مقطعه الأول الذى يحمل اسم معبود مصرى مثل رع أو تحوت أو آمون أما قصة الفرعون عدو موسى فيفسرها المؤرخ روينسون بأنها قد انحدرت الى اليهود من قصة مصرية ترمز للصراع الدامى بين أحموس وفرعون الهكسوس الشرير الذى هزمه أحموس واستكمل تحرير مصر بعد استشهاد والده «سقنن رع» و وفاة أخيه الملك «كاموسى» . فكان اليهود وفقا لهذه النظرية قد واعدوا بين صراع أحوس بطل مصر القومى ضد الهكسوس ، وصراع موسى بطلهم القومى المصرى الأصل والذى نهض بعبء قيادتهم فى الخروج من مصر .

ويذهب بعض المؤرخين للقول بأن قصة الخروج ترمز لخروج الهكسوس من مصر وتولى ملكها طردهم وقتلهم وتشريدهم بعد أن ذاق المصريون على أيديهم الذل والمهانة .

وتلقى هذه النظرية شيئا من الضوء على الفائق الذى يرين على خروج اليهود من مصر اذ لا نجد فى المستندات المصرية الخائلة ذكر التفاصيل اشارة ولو عابرة عن هذا الحدث الهام الذى أصبح له تأثير ضخم على التاريخ الدينى وما برح يؤثر فى نفسية اليهود ، وهو الذى أثمر بصفة عامة ذاتيتهم الخاصة .

ولقد ظلت الأسماء المصرية شائعة بين اليهود وقتنا

طويلا وبخاصة فى بيت هارون ، ولا يزال بعضها قائما مثل بنحاس * (١)

ويغفل أنبياء اسرائيل ويهودا خلال القرن الثامن قبل الميلاد ذكر علاقة موسى بالتوراة ويستخدمون كلمة «توراة» تعبيرا عن أحاديثهم . وكان النبي عزرا أول من نادى بأن التوراة أوحيت الى موسى ، وعزرا هو الذى ارتحل من بابل الى يهودا خلال عام ٤٥٨ قبل الميلاد أو ٣٩٧ قبل الميلاد فإذا كانت الاسفار الخمسة - كما قررنا - قد وضعت فى أبان القرن التاسع أو العاشر قبل الميلاد فإن التوراة قد استكملت صورتها الحالية بعد الحرب الرومانية اليهودية (٦٦ - ٧٠ بعد الميلاد) *

لقد أظهرت الدراسات العلمية أن سفر الأمثال قد اقتبس من أناشيد فينيقية نقلت هى الأخرى بنصها من أمثال الحكيم المصرى آمنموبى *

٢ - آراء العلامة فرويد

ولا يمكن فى دراسة تأثير مصر على العقيدة اليهودية ان نغفل ما قرره العلامة فرويد فى كتابه الطريف « موسى والوحدانية » *

(١) بنحاس من كلمة نحس الفرعونية وتعنى النبى *

يقرر فرويد أن يا هوى أصله اله محلي متصل بالأرض وأن لفظ يا هوى قد استخدمه كهنة آمون في نشيد للتسبيح باسم معبودهم . وفي الأصل أنه ظهر لبصر الاسرائيليين لأول مرة على صورة كائن « جنى » يسكن مكانا في شمال الجزيرة العربية ويتجلى في بركان . واله اليهود غيور انطوائي لكنه يتسامح مع مناقسيه من الارباب المحليين من نوعه . ولكن ما أن حل اليهود بمصر واحتكوا بآراء أخناتون حتى برزت في ديانتهم خاصيتا « كلية الوجود » و « الوجدانية » اللتان تتصف بهما فكرة الرب في العقيدة اليهودية الحديثة .

ولقد تولى أخناتون ملك مصر العبقرى عرش الامبراطورية المصرية عام ١٣٧٥ قبل الميلاد بعد وفاة والده آمنتحت الثالث الذي بلغت مصر في عهده أزهى عصورها الحضارية وأبهاها . ولقد اتجه أخناتون اتجاهها دينيا بحثا ولم تسيره العوامل الذاتية ، فلقد رنا الى أبعد من ذلك كثيرا . اذ هفت نفسه للوجدانية المجردة عن الأغراض الدنيوية ، وتبلورت عقيدته في عبادة القوة التي تعتبر الشمس أعظم مظاهرها على الأرض واتخذ من اسم آتون علما على تلك القوة ، ورمز اليها بقرص الشمس ينبثق منه شعاع ينتهي بأيدي بشرية تحمل في بعض الأحيان علامة الحياة المصرية القديمة (أى العنخ) .

وأول ما يلفت نظر العلامة فرويد مثلما لفت نظر غيره

من الباحثين اسم موسى عليه السلام ، فانه مشتق من اللغة المصرية القديمة ، ويعنى طفل ، ويدخل فى كثير من الاسماء المصرية مثل « آمون موسى » ويعنى آمون وهب طفلا و «بتاح موسى» أى بتاح وهب طفلا . ويخلص فرويد من مناقشته اسم موسى وما أحيط به مولده من أساطير وردت فى سفر الخروج للقول بأن موسى محرر اليهود من رق المصريين وبطلهم ومانحهم شريعتهم وناموسهم لم يكن يهوديا بل كان مصرية صميما . لكن عز على اليهود أن يكون بطلهم القومي أجنبيا فأحاطته أساطيرهم الى يهودى وان كانت التوراة قد اعترفت بأنه قد اكتسب حكمة المصريين .

وجدير بالذكر أن كلمة توراة العبرية تعنى «التعليم» وهذا هو بالضبط ما يعنيه لفظ « سبايت » الاسم المصرى لمذهب اخناتون التوحيدى . ويعترف فرويد بأن أحبار اليهود قد أحاطوا موسى بالكثير من الاساطير وحاكوا حوله على مر الأجيال الروايات الخيالية الامر الذى أسـبـغ الغموض على تلك الشخصية الفذة ، كما تروى التوراة سيرتها .

وقد ألزم موسى - بحكم مصريته - اليهود باعتناق عادة الختان . وكان المصريون يجرونها دون بقية شعوب العالم بأسرها وعرفوها قبل دخول اليهود مصر بآلاف السنين وهدف موسى من وراء ذلك أن يساوى بين اليهود والمصريين

فى عادة انفرد بها الاخرون وكانوا يحسون بفضـل
مارستها انهم أنقى أجناس البشر جميعا .

وعلى أية حال ، حالت هذه العادة دون ذوبان اليهود
فى المجتمعات الأخرى أثناء ترحالهم وتجوألهم ، مثلما
قد حالت بين المصريين والاختلاط على نطاق واسع بالامم
التي احتلت بلادهم مثل الفرس واليونان والرومان . وما
كان أحبار اليهود ليعترفوا بالأصل المصرى لعادة الختان
ففى هذا الاعتراف اضعاف فكرة شعب الله المختار ، فادعوا
فى التوراة بأن الختان التزام فرضه الرب على شعبه المختار
بموجب عهد أرجعوه الى النبى ابراهيم .

وثمة مظهر آخر لفكرة التسامى عن بقية الشعوب
والعزوف عن الاختلاط بها اقتبسه اليهود من مصر ألا وهو
تحريم تناول لحم الخنزير لاتصال ذلك بأسطورة تقول
بأن رب الشر ست قد تنكر فى شكل خنزير وهاجم الرب
« حور » . ولما كانت الشعوب الأخرى تأكل لحم الخنزير
امتنع المصريون نساء ورجالا عن مصافحة الأجانب أو تقبيلهم
أو استخدام أدوات مطبخهم خشية أن تكون قد تلوّث بلحم
الخنزير . وبفضل هذا انحصر اختلاط المصريين بالأجانب
فى حدود ضيقة للغاية فكان أن احتفظت القومية المصرية
بأصالتها المديدة على كر السنين والأحقاب الى يومنا
الحاضر .

ولكن اليهود بعد خروجهم من مصر بقيادة موسى قد

ارتدوا عن الوجدانية ، وذلك لأن اخلاطا من القبائل
المستوطنة الاراضى الواقعة بين مصر وكنعان انضمت لليهود
بعد خروجهم من مصر . وكانت قبائل شمال الجزيرة العربية
تعبد ربا تعتقد انه يسكن بركانا ويتجلى لعابديه بانطلاق
حممه ، وتطلق عليه « ياهوى » المصرى الاصل كما قررنا .
وبذلك أصبح ما يطلق عليه الشعب اليهودى « ياهوى »
يتكون من عنصرين أساسيين : -

- عنصر مصرى التربية والعقيدة

عنصر بدوى من شمال جزيرة العرب

وكان عدد اليهود المصريين أقل من عدد من انضموا
اليهم من أبناء القبائل الاخرى ، لكنهم بحكم توطنهم الطويل
بمصر اسمى ثقافة بمالا يقاس . ويرجح فرويد ان يكون
اللاويون - وكانوا أدنى اليهود المصريين الى قلب موسى -
مصريين أقحاحا من أتباعه بقايا معتنقى العقيدة الآتونية ،
وكان اللاويون يحملون أسماء مصرية بحثة دون غيرهم
من اليهود الذين خرجوا مع موسى .

وفى قادس - كما يقرر فرويد - اجتمع الفريقان :
الأقلية المصرية (المصريون الاقحاح أى اللاويون واليهود
المتمصرون) والغالبية من القبائل البدوية التى انضمت
اليهم . وهناك تقبل الجميع اسم « ياهوى » الاله البركانى
معبود منطقة شمال شبه الجزيرة العربية على أن يحل محل

آتون (أو أدوناي) وأن يكون ربا عالميا مثل آنون . وكان موسى - كما يدعى فرويد - قد مات ويرجع قتل اليهود غير المصريين له قبل مؤتمر قادس بأكثر من مائة عام . وسعى المجتمعون لاستئصال كل شيء يربطهم بمصر . فكان أن ربطوا بين موسى وذلك الكاهن الذى أنشأ ديانة ياهوى فاطلقوا عليه اسم موسى السامرى . الا أنهم - تحت تأثير اليهود المصريين - قد احتفظوا بفريضة الختان وأن أنكروا أصلها المصرى وأرجع مؤلفو التوراة - كما ذكرنا - أصلها الى عهد بين ابراهيم وربّه تمييزاً لنسله عن بقية أقوام العالم بحسبانه شعب الله المختار .

ويصف فرويد أدعاء اليهود أنهم شعب الله المختار بأنه خرافة مطبقة . ويقرر أن تلك حالة لا نظير لها على الإطلاق فى تاريخ العقائد الدينية . ففى الحالات الأخرى يندمج الشعب ومعبوده أندماجاً تاماً منذ البداية ، فى حالات أخرى يتحول شعب الى عبادة معبوده : أى يختار الناس معبودهم . ولم يحدث قط - كما فى الحالة هذه - أن اختار الله عابديه . فالمتنطق يفرض علينا أن نقرر أن موسى قد جعل من اليهود شعبه ، أى شعبه ، أى شعبه المختار بعد ما تبين له عزوف المصريين عن الوحدانية .

لكم ما الذى فعله اليهود بموسى ؟

يجيب فرويد عن هذا السؤال بنظرية خطيرة استقاه هو وغيره من الباحثين الغربيين من دراسة الكتب المقدسة

اليهودية ومن استقصاء التاريخ الدينى • ومدار النظرية
ان موسى لاقى مصر اخناتون • فلقد عجز شعب موسى
اليهودى عن احتمال فكرة دينية ذات طابع روحانى رفيع
ملثما عجز شعب الأسرة الثامنة عشرة المصرى عن احتمالها .
وكانت النتيجة واضحة فى الحالين : تمرد الناس على العقيدة
الدينية التى فرضت عليهم رغم ارادتهم • ولكن بينما
صبر الشعب المصرى المتحضر على حكم فرعون لتقديسهم
لشخصه الى أن مات ، ثار اليهود المتوحشون - وفقا لتعبير
فرويد - على موسى وقتلوه • ويبنى حكمه هذا على قصة
التيه فى سيناء ، اذ ترمز فى نظره الى سلسلة من تمرد
اليهود على حكم موسى ، وبلغ التمرد ذروته بعبادتهم العجل
الذهبي وبغضب موسى وتحطيمه ألواح الشريعة •

وأتى على اليهود بعد ذلك حين من الدهر ندموا على
فعلتهم الوحشية وحاولوا نسيانها • وحدث ذلك - كما
يقول فرويد - عند اجتماع اليهود فى قادس فى تاريخ
يقع قبل عام ١٢١٥ قبل الميلاد (أى فى أواخر عصر
الفرعون مرتباج بن رمسيس الثانى) وقبل استقرار
أحوال مصر فى عصر حورمحب آخر ملوك الأسرة الثامنة
عشرة ، أى فى تاريخ قريب من عام ١٣٥٠ ق.م •

ذلك لأنه عوضا عن « آتون » ذى الصفات الوديعه
والخلق الكريم الذى ينفر من العنف فى شتى صوره وينشد
السلام ، حل مكانه اله يصفه فرويد بأنه : عنيف ، غضوب

ضيق الافق العقلى ، محب لسفك الدماء ، وعد اتبعاه
بأن يمنحهم أرضا تفيض لبنا وعسلا باغتصابها من سكانها
الأصليين بحد السيف . ولم تكن ديانة « ياهوى » فى بداية
أمرها ديانة توحيد كاملة ، فلقد اعترف يا هوى بالآلهة
الأخرى ولكن على أساس أنه أقواهم . وهذه فكرة تجافى
فكرة موسى ذات الطابع الروحانى السامى عن الاله . فهو
اله واحد يشمل سلطانه الكون بأسره ، قوى رحيم ،
يطالب عابديه بأن ينشدوا الحق والصدق وينبذوا السحر
والأساطير والكهانة .

ولقد جهد اللاويون - أتباع موسى ومواطنوه من
المصريين - فى العمل على انتصار رب موسى وإحلاله محل
ياهوى الاله البركانى الاصل . ففى غضون السنوات
الطوال التى تلت مؤتمر قادس ، عملوا على استعادة شريعة
موسى وتطويرها والحفاظ على المتون المقدسة والزام
الشعب اليهودى بمراعاة طقوس العبادة الماثورة عن موسى .
ولقد تأثرت بتعاليمهم وأخلاقهم جمهرة من مثقفى اليهود
(من غير اللاويين) ثابروا بدورهم على التبشير بالمذهب
الموسوى : ذلك المذهب الذى يستند على وجود اله واحد
أحد فرد صمد يزدرى الطقوس الوثنية بما تفرضه من
تضحيات بشرية ، يتطلب الاله الواحد من أتباعه الايمان
الصادق به والانغمار فى الحقيقة والعدالة (أى ما يعبر
عنه بكلمة معات المصرية القديمة) وكللت جهود أنبياء

بنى اسرائيل بالتوفيق فى نهاية المطاف فاستعاد المعتقد القديم سلطانه وأصبح المحتوى الدائم للديانة اليهودية .

ويقرر فرويد أنه يتبين التأثير المصرى فى الديانة اليهودية من تلك المسحة الشاعرية التى تلون الفكرة الالهية سواء ما اتصل منها بـ « ياهوى » أو منافسه « الوهيم » . ففى هذه المسحة تتجلى طبيعة الديانة الموسوية فما كان « ياهوى » فى الأصل سوى وثن لا يفترق عن الأوثان التى كانت تتعبد لها القبائل والشعوب المجاورة لليهود ، وكان كل منها يتخذ وثنه الأثير رمزاً يحارب تحت لوائه أعداءه . ولم تفترق طبيعة ياهوى فى جوهرها عن طبيعة تلك الأوثان الى أن اصطبغ بالصبغة الموسوية المصرية الاصل . وظلت القبائل اليهودية تعترف بألهة قبائل كنعان وموآب وآماليك وغيرها من القبائل . وليس أدل على صحة نظرية ديانة آتون على التوحيد اليهودى مما أظهرته الكشوف الأثرية من وجود جالية يهودية بجزيرة الفنتين بأسوان كانت تتعبد - قبل انبعث ديانة آتون - لوثن يدعى « ياهو » كما تتعبد الى معبود مؤنث أطلقت عليه اسم « آنات - ياهو » .

ويعزو فرويد ارتداد اليهود عن الوحداية وايتارهم اعتناق عقيدة « ياهوى » الى طابع تلك العقيدة العسكرية اذ كان الها بركانيا فظاً غضوباً ميالاً الى التدمير . وكانوا هم متمدن على غزو فلسطين والفتك بسكانها الأصليين

للحلول محلهم • فكان أن صدفوا عن عبادة آتون لما تتصف به - كما يتصف صاحبها اخناتون - من وداعة ورقة وايثار السلام والتبشير بالمحبة والوثام بين الشعوب ، لا سيما أن كان ظهوره - أى آتون - فى عصر اتسم باستقرار أوضاع الامبراطورية المصرية وانتفاء الحاجة للروح العسكرية بالتالى • لكن أخذت نزعة « ياهوى » التدميرية وطابعه العنيف الاصلى يتلاشيان تدريجيا متخذاً صفات رب موسى القديم محتفظاً بالذات بطابعه كاله الكون بأسره يهيمن على أقطار الأرض كلها وعلى كافة الشعوب • بيد أن انتقال الوحداية من المصريين الى اليهود قد سلك - كما يقرر فرويد - سبيلاً تجلى فى فكرة جديدة مدارها أن اليهود وقد أصبحوا المؤمنين به دون بقية الشعوب - شعبه المختار - يتلقون وحدهم بركاته وثوابه •

وما كان ايمان اليهود بأنهم شعب الله المختار ليتواءم مع ما حفل به تاريخهم من اخفاق ومكابدات • فكان أن ابتعث أحبارهم من أعماق شعور الشعب عقدة الذنب ففسروا - بالتالى - ما يمر به الشعب اليهودى من أرزاء بأنه تكفير عن ذلك الذنب وأن تلك ارادته تعالى الى أن يحين الوقت الذى يحظون فيه برضائه تعالى كشعب الله المختار وما هم فى الواقع - كما يقول فرويد - الا شعب موسى المختار • وتطور ايمانهم بعقيدة الشعب المختار للايمان بفكرة ظهور شخصية الهية أطلقوا عليها المسيح تتولى

تحقيق حلمهم المرتجى : كفالة الخلاص للشعب اليهودى ،
ويكمن الخلاص فى اخضاع العالم لسلطانهم . فالخلاص
مادى الطابع وينصرف الى اليهود وحدهم دون بقية شعوب
العالم . ويناهض هذا مبادئ المسيحية والاسلام بما تبشران
به من الخلاص للمؤمنين جميعا ، من جميع العناصر
والشعوب .

الفصل الرابع

خصائص اليهودية

١ - تطور معاملة اليهود

يتساءل المؤرخ العالمى أرنولد توينبى عن علة الصفات المميزة لليهود فى ظل التفرقة الدينية • ولقد استعان فى بحثه بوسيلتين :

الأولى - مقارنة النفسية المميزة التى يظهرها اليهود وقت اخضاعهم لنقمة الاضطهاد الدينى والعنصرى ، بتلك النفسية بعد ما تختفى النقمة أو تزول كلية •

الثانية - مقارنة طابع اليهود الذين خضعوا للنقمة أو لا يزالون خاضعين لها بطابع الجماعات اليهودية الأخرى التى لم توجه اليها نقمة الاضطهاد الدينى والعنصرى •

واليهود الذين يظهرون بكل جلاء فى الوقت الحاضر الصفات اليهودية المألوفة جيدا والتى تلقب عادة بـ«اليهودية» والتى تنطبع فى أذهان الامم عامة حتى لتصبح علامة اليهودية فى كل زمان ومكان - هم يهود شرق أوروبا الذين يعرفون بـ « الأشكنازية » •

وأراضى شرق أوروبا كانت داخلة فى الامبراطورية الروسية تحت ما يسمى « الحظيرة اليهودية » • اذ ظل هؤلاء محصورين أدبيا وبحكم التشريع كذلك فى حى خاص

بهم يدعى « الغيتو » بفعل تلك الأمم المسيحية التي كانت من نصيب اليهود أن يعيشوا بين ظهرانيها .

وأكيدا ، نجد النفسية اليهودية أقل وضوحا بين يهود هولندا وبريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة المتحررين ولعلنا نلاحظ أيضا في يهود الغرب المتحررين أن الذين هم من أصل اشكنازى ووفدوا اليه من الحظيرة اليهودية ، لاتزال تبدو في نفسيتهم طائفة يهودية أشد مما يبدو في نفسية طائفة يهودية أخرى تدعى « السيفارديم » وفدت الى أوروبا الغربية من البلاد الاسلامية وهم أقل عددا من يهود طائفة الاشكنازى التي عاشت بين ظهرائى مسيحيى أوروبا .
ويعمل الأستاذ توينبى الاختلاف بين طائفتى الاشكنازية والسفارديم اليهوديتين من ناحية شدة حدة الروح اليهودية الى الاختلاف فى تطور هاتين الجماعتين اليهوديتين التاريخي .

اذ ينحدر اليهود الاشكنازيون من اليهود الذين اغتتموا فتح الرومانين أبواب أوروبا فحققوا أرباحا من ممارسة تجارة التجزئة فى مقاطعات ما وراء الالب شبه الهمجية . واستفحلت محنة هؤلاء الاشكنازيين باعتناق الامبراطورية الرومانية المسيحية ثم انهيارها . فانهم قد غدوا يعانون الأمرين من تعصب الكنيسة المسيحية ومن ازدراء الوثنيين الجرمان وغيرهم . اذ لا يحتمل الوثنى مشاهدة مقيم غريب يحيا حياة منعزلة ويحصل على ربح بفضل التبادل التجارى الذى كان الوثنى يفتقر للمهارة

اللازمة لممارسته بنفسه . فكان أن اندفع المسيحيون الغربيون - مسيرين بهذه المشاعر - لاضطهاد اليهودي : طالما لا غنى لهم عنه ثم طردوه بمجرد ما أحسوا بقدرتهم على الاستغناء عنه .

وبالأحرى، صاحب قيام المسيحية الغربية وامتدادها دفع الاشكنازيين شرقا من حدود المسيحية الغربية . وفي داخل أراضى المسيحية الغربية ، طفق اليهود يطردون من بلد بعد آخر ، وذلك كلما بلغت الشعوب الغربية المتعاقبة مستوى معيناً من الكفاءة الاقتصادية : مثلما طردهم من انجلترا ادوارد الأول (١٢٧٢ - ١٣٠٧ م) . فى حين قبل هؤلاء اليهود (المنفيون من داخل القارة) فى أقاليم الحدود المتقدمة ، بل انهم دعوا للاقامة فى بلد بعد الآخر فى ابان المراحل الأولى لتحولها الغربى باعتبارهم روادا تجاريين . وما لبثوا أن تعرضوا للاضطهاد ثم طردوا فى النهاية مرة أخرى بمجرد أن أصبحوا غير ضروريين للحياة الاقتصادية فى ملجئهم الوقتى .

وفى روسيا القيصرية توقفت رحلة اليهود الاشكنازيين من الغرب الى الشرق وبلغ اضطهادهم ذروته وذلك لأنه هاهنا عند التقاء المسيحية الغربية (الكاثوليكية البروتستانتية) بالمسيحية الأرثوذكسية الروسية -أمسك باليهود وطحنوا بين شقى الرحى . وعندما نشدوا فى هذه الرحلة معاودة الارتحال شرقا ، سادت روسيا القيصرية

الطريق في وجوههم . بيد أن أهم الغرب الرئيسية التي كانت أبادئة بطرد اليهود في القرون الوسطى . بلغت في هذا الوقت - لحسن طالع الاشكنازيين - مستوى من الكفاية الاقتصادية لم تعد تخشى معه تلك الامم تعريض نفسها للمنافسة الاقتصادية اليهودية ، مثلما حدث في انجلترا في عصر الكومنولث ، وقتما أذن كرومويل (١٦٥٣ - ١٦٥٨) لليهود بالعودة لانجلترا .

وجاء تحرير اليهود في الغرب في الوقت المناسب ليهيئ مخرجاً جديداً لليهود الطائفة الاشكنازية في الامبراطورية الروسية . وذلك عندما وصلت بهم رحلتهم القديمة نحو الشرق الى الحائط الذي لا منفذ له والذي يكون حد الامبراطورية الروسية الغربى . وطفق مد الهجرة الاشكنازية يتراجع طوال القرن الماضى، من الشرق الى الغرب ، من الامبراطورية الروسية الى انجلترا والولايات المتحدة . ولم يكن مستغرباً أن تبدى الاشكنازية - وهذا ماضيها - التى أودعها بين ظهراى الشعوب الغربية تراجع المد والجزر هذا ، ما يدعى بالنفسية اليهودية . بشكل أكثر وضوحاً من طائفة السفاردية اخوان الطائفة الاشكنازية فى الدين الذين وضعهم طالعهم فى أماكن كانوا فيها أسعد حالاً .

ويفسر الأستاذ توينبى ضعف حدة « الروح اليهودية »

الذى يلاحظه الباحث بين مهاجرى طائفة السفاردية من أسبانيا والبرتغال ، بحياتهم السابقة فى دار السلام ، معى فارس وفى المقاطعات الرومانية التى استولى عليها العرب فى نهاية الامر ، وجد أصحاب التشنث اليهودى أنفسهم فى مركز أسعد نسبيا . بل انه من المؤكد أن وضعهم فى عهد الخلافة العباسية لم يكن ليقل عن وضع اليهود فى الوقت الحاضر فى تلك الدول الغربية التى تحرر فيها اليهود فى وقتنا هذا . لكن حلت بطائفة السفارديم مصيبة تاريخية وقتما انتقلت شبه جزيرة ايبيريا (اسبانيا والبرتغال) تدريجيا من المسلمين الى المسيحيين الغربيين ، وهو الانتقال الذى تم فى نهاية القرن الخامس عشر وقتما عرض عليهم غزاتهم المسيحيون أن يختاروا بين أمور ثلاثة : - الابداء ، أو الطرد ، أو اعتناق المسيحية .

فاذا ألقى الباحث نظرة على مآل أفراد سفاردية شبه الجزيرة الأيبيرية الذين أنقذوا حياتهم بقبولهم احدى طريقتى الاختيار الأخيرتين - ولا تزال ذريتهم باقية حتى اليوم - وجد أولئك الذين آثروا المنفى ملاذا لدى أعداء أسبانيا والبرتغال الكاثوليكين ، فى هولندا وتركيا وتوسكاني . أما أولئك الذين قصدوا تركيا ، فقد شجعهم حماهم من الأتراك العثمانيين على الإقامة فى القسطنطينية وسالونيك وفى المراكز الحقة الصغيرة فى الرومىلى ليسدوا الفراغ الناشئ عن زوال الطبقة اليونانية المتوسطة

الحضرية السابقة أو فنائها • فاستطاع اللاجئون من طائفة اليهود السفارديين - في ظل هذه الظروف المواتية - أن يتخصصوا في التجارة وأن تروج أحوالهم من غير أن تبرز بينهم تلك النفسية اليهودية التي تتجلى في الاشكنازيين بأوضح صورة .

أما بالنسبة للمارانوس - يهود شبه جزيرة أيبيريا الذين ارتضوا اعتناق الدين المسيحي منذ أربعة أو خمسة قرون مضت - فقد هبطت حدة صفاتهم اليهودية المميزة الى حد التلاشى تقريبا • وهناك أكثر من سبب يحمل على الاعتقاد بوجود صبغة قوية في الوقت الحاضر من دم هؤلاء اليهود المرتدين في عروق الابيريين سكان أسبانيا . والبرتغال لا سيما في الطبقات العليا والمتوسطة • بيد أنه يصعب على أكثر المحللين النفسانيين حذقا ، ان يستشف أصحاب الأصل اليهودي ان عرضت عليه عينات حية من الطبقة العليا والوسطى الحاليتين من الأسبانيين والبرتغاليين .

٢ - الغرب الحديث واليهود

كانت اليهودية في الشكل الذي اصطدمت به مع المسيحية الغربية ، ظاهرة اجتماعية شاذة بحسبانها

فضلة متحجرة من حضارة بادت وانقضت نرى كل مظاهرها
فلقد كانت دولة يهودا الاقليمية السريانية - وعنهما اثبتت
اليهودية - واحدة من الطوائف البدائية ، الفينيقية الآرامية
الفلسطينية • ولكن بينما فقدت الطوائف الاخرى شقيقات
طائفة يهودا كيانها - كما فقدت صفتها كدولة - بفعل
المصائب القاتلة التي توالى على المجتمع السورى نتيجة
لمصادماته المتعاقبة مع جاريه البابلي والهيلنى ، فان هذا
التحدى نفسه الذى واجهه اليهود ، قد استثارهم لبدءوا
لانفسهم طرازا طريقا من الكيان الطائفى • وفى داخل نطاق
هذا الطراز الجديد ، استعاضوا عن فقدان دولتهم وبلادهم
بالاحتفاظ بذاتيتهم فى صورة تشتت Diaspora بين
ظهرانى اقلية اجنبية وفى ظل حكم اجنبى •

وليس رد الفعل اليهودى الموفق هذا بالشىء الفريد
فى نوعه ، فان لتشتت اليهود فى أرجاء العالمين الاسلامى
والمسيحى ، ما يماثله فى تشتت طائفة « البارسى » فى
أنحاء الهند • وهذه الطائفة هى كذلك بقية متحجرة من
بقايا المجتمع السورى نفسه • البارسيون هم بقايا من
تحولوا الى الحضارة السورية التى منحت المجتمع السورى
دولته العالمية فى شكل امبراطورية فارسية ، أن طائفة
البارسيين - كاليهود - رمز حى لارادة الحياة بعد فقدان
الدولة والوطن • وهذه الحسارة للدولة والوطن جاءت -
مثلا حدث لليهود - نتيجة مصادمات متتالية بين العالم

السورى والمجتمعات المجاورة له . وكما بذل اليهود من تضحيات خلال القرون الثلاثة المنتهية فى عام ١٣٥ ميلادية ضحى الآباء الأولون للبارسيين من أتباع زرادشت بأنفسهم فى محاولة فاشلة للتخلص من تأثير دخيل للحضارة الهلينية . وكما دفع اليهود الثمن الذى اقتضته منهم الامبراطورية الرومانية جزاء فشلهم ، كذلك دفع الايرانيون من أتباع زرادشت جزاء فشلهم الثمن الذى اقتضاه الفاتحون العرب المسلمون فى القرن السابع الميلادى .

وحافظ اليهود والبارسيون فى هاتين الأزمتين المتماثلتين من تاريخيهما كل على ذاتيته ، بفضل استنباطه نظاما جديدة والتخصص فى مجالات جديدة من العمل . ولقد وجد كل منهما فى أحكام شريعته الدينية وشيجة اجتماعية تربط بين أفراد الطائفة . ونجوا من عواقب الكارثة الاقتصادية التى أنزلها بهم انتزاعهم من أرض آبائهم ، بتنميتهم - وهم فى المنفى - مهارة خاصة فى شئون التجارة وغيرها من الحرف الحضرية ، فاستعاضوا بها عن الفلاحة التى لم بعد بتبسر لهؤلاء المنفيين المجردين من الارض ممارستها .

ولم يكن هؤلاء المشردون من اليهود والبارسيين وحدهم هم البقايا المتحجرة التى خلفها وراءه المجتمع السورى البائد اذ أخرجت البدع الدينية المسيحية المناهضة للهلينية والتى ظهرت خلال الحقبة الواقعة بين تأسيس المسيحية

وقيام الاسلام : أخرجت بقايا متحجرة فى شكل الكنيستين
« النسطورية » و « المينوفيستية » .

كما أن المجتمع السورى لم يكن وحده المجتمع الذى
وفقت الطوائف المنبثقة عنه فى أن تعيش بفضل الجمع بين
التنظيم الروحانى والعمل التجارى بعد أن فقدت دولتها
وأخرجت من ديارها . فان الطائفة اليونانية المسيحية
الأرثوذكسية التى خضعت لنظام عثمانى غريب عليها
وأخرجت من ديارها - الى حد ما - قد استجابت لتحدى
هذا النظام باحداثها تغييرات فى تنظيماتها الاجتماعية
ومناحي نشاطها الاقتصادى ، الأمر الذى سار بها شوطا
بعيدا فى مصير « التشتت » من نفس النوع الذى سبق
ذكره .

وحقا كانت الطوائف الدينية فى الامبراطورية العثمانية
مجرد صيغة أخرى للبناء الطائفى فى المجتمع ، ذلك البناء
الذى نما تلقائيا فى العالم السورى بعد أن سحقت الدولة
السورية واختلطت الشعوب السورية اختلاطا معقدا بفعل
عدوان العسكرية الاشورية ، وأسفر ذلك عن اعادة وصل
ما انقطع من أجزاء المجتمع على شكل شبكة من الطوائف
المختلطة ، عوضا عن التنظيم السابق لهذا المجتمع فى
شكل مرقعة من الدول الاقليمية المعزولة جغرافيا . وورث
هذا الأسلوب فى اعادة تشكيل المجتمع السريانى (السورى)
خلفاؤه المسلمون من العرب والايرائين ، ثم فرضه فيما

بعد بناء الامبراطورية العثمانية على الشعوب المسيحية
الأرثوذكسية التي خضعت لحكمهم .

وعلى هدى هذه النظرة التاريخية الشاملة ، يتضح
لنا أن التشتت اليهودى كان فى تلاقيه بالمسيحية الغربية
أبعد من أن يكون ظاهرة اجتماعية فريدة فى نوعها . بل
كان - على العكس - عينة لنموذج من طائفة غدا الطراز
المعروف فى أرجاء العالم الاسلامى الذى تشتت اليهود
فيه ، وفى العالم المسيحى الغربى . لهذا قد يتساءل المرء
بحق ، عما إذا كان الوضع الاجتماعى الخاص الذى أسفر
عنه التلاقى المفجع بين اليهودية والمسيحية الغربية لا يرجع
الى خصائص معينة فى جانب المسيحية الغربية . لا تقل
مما يوجد منها فى الجانب اليهودى . وفى وسعنا إذ نطرح
هذا السؤال أن نستبين ان التاريخ الغربى قد تميزا بحق
بثلاثة اعتبارات تتصل جميعها بتاريخ العلاقات اليهودية
الغربية :

أولا - أن المجتمع الغربى قد نظم نفسه فى شكل
مرقعة من الدول الاقليمية المنعزلة احداها عن الأخرى
جغافيا .

ثانيا - ان ذلك المجتمع قد طور نفسه تدريجيا من
مجتمع مغرق فى اقتصاده الزراعى ، يتكون من فلاحين
وملاك أرض الى مجتمع مغرق فى نزعته الحضرية قوامه
الصناع والبورجوازية

ثالثا - هذا المجتمع الغربى فى شكله الاخير القائم على الفكرة القومية وعقلية الطبقة الوسطى ، انبعث من بين طبقات الظلام النسبى الذى ران عليه فى ابان القرون الوسطى ، ثم مضى سريعا ليبسط ظله على سائر الدنيا .

ويفصح تاريخ تشتت اليهود فى شبه جزيرة ايبيريا عن الارتباط الكامن بين النزعة المعادية للسامية وبين المثل الأعلى للمسيحية الغربية وقوامه : تجانس الجماعة التى تنظم جميع السكان فى اقليم معين .

فما ان التأمت الهوة بين طائفتى الرومان والقوط الغربيين - بفضل تحول القوط الغربيين عام ٥٨٧ م من المسيحية الآرية الى المسيحية الكاثوليكية - حتى حدث فى بلاد القوط الغربيين توتر بين الجماعة المسيحية الموحدة والطائفة اليهودية التى زاد تبعا لذلك شعورها بذاتيتها وتسجل تزايد حدة التوتر سلسلة من التشريعات المناهضة لليهود تناهض تماما التشريع الانسانى الذى صدر فى نفس الوقت عن القوط الغربيين لحماية العبيد من استبداد سادتهم . على أن هذه التشريعات السامى منها والمنحط على السوء دليل على نفوذ الكنيسة على الدولة .

وفى تلك الظروف تأمر فى نهاية الأمر يهود جزيرة ايبيريا مع اخوانهم فى الدين فى شمال افريقيا لاغراء العرب المسلمين بفتح أسبانيا . وتلا الفتح انبعث نظام

اسلامى فى شبه الجزيرة لبث خمسمائة عام (٧١١ م - ١٢١٢) . وفى ظل الحكم الاسلامى لم تعد الطائفة اليهودية وقد أصبحت تستمتع بالحكم الذاتى ، قوما لهم طابع خاص . لكن لم تستمر هناة الطائفة اليهودية فى شبه الجزيرة بعد انهيار الحكم الاسلامى . فان برابرة القرون الوسطى من المسيحيين الكاثوليك الذين غزوا أملاك الخلافة الأموية الأندلسية قد نذروا أنفسهم لتحقيق المثل الأعلى للجماعة المسيحية المتجانسة . فكان أن اضطر اليهود فى الفترة الواقعة بين عامى ١٣٩١ و ١٤٩٧ للخروج الى المنفى أو الاعتراف باعتناق المسيحية .

وهذا المثل الأعلى للجماعة المسيحية المتجانسة الذى كان الدافع السياسى لضيق المسيحية الغربية ذرعا بوجود الاغراب اليهود بين ظهرانيها ، عززته تطورات اقتصادية واجتماعية على مر الايام .

فما الوطن الذى نشأ فيه المجتمع الغربى الا بقية قصبة من العالم الهلنى ، أخفقت الثقافة الحضرية الهلينية فى تأصيل جذورها فيه . والحياة الحضرية الظاهرة على سطح المجتمع التى أقيمت على أسس زراعية بدائية قد ظهر أنها عمل معوق بدلا من أن تكون عامل دفع واستثارة فما أن تقوض - تحت ثقل نفسه - هذا البناء السطحي الغريب الذى شيده الرومان ، حتى عاد الغرب فارتد الى

نفس المستوى الاقتصادى الوطنى الذى كان عليه قبلما تسعى الحضارة الهيلينية لغرس بذورها وراء جبال الابنين أو عبر البحر التيرانى . وترتب بالذات على هذا التأخر الاقتصادى نتيجتان : -

الأولى - انتشار اليهود المشتتين فى أرجاء العالم المسيحى الغربى . اذ عثر اليهود على ثغرة فى الغرب نفذوا منها الى العمل لتدبير معاشهم . وذلك بتزويد المجتمع وما كان فى وسع أى بلد زراعى قح أن يعيش بدون هذا الحد من الخبرة التجارية والتنظيم . بل لم يكن هذا البلد ليسستطيع - فى ظروفه وقتذاك - القيام بموارده الخاصة .

الثانية - طموح المسيحيين فى المجتمع الغربى الى أن يحلوا محل اليهود عن طريق اتقانهم الفنون اليهودية المربحة .

وعلى مر الاجيال بذل المسيحيون فى الغرب جهودا جبارة فى هذا الميدان الاقتصادى الذى كان احتكارا لليهود اجدت عليهم فى النهاية أرباحا مثيرة . فلم يحل القرن العشرون للميلاد حتى كانت المؤخرة الشرقية من طابور الشعوب الغربية (أى بولندا والمجر وليتوانيا) - فى زحفها الطويل نحو هدفها الذى تتطلع اليه وهولوغ الكفاية الاقتصادية - تمر فى عملية تحول حقتها قبلها بألف عام شعوب شمال ايطاليا والفلمنك ، وقد كانوا الرواد

الأولى لحركة يمكن أن نطلق عليها دون أن نجاوز الحقيقة
فى كلتا الحالتين «التهود» أى اصطناع الاساليب اليهودية .
وكان ظهور طبقة من المسيحيين المؤهلين لانجاز جميع
الأعمال التى تخصص فيها اليهود ثم تطلعهم بالتالى الى طرد
اليهود ، عاملا فى التاريخ الغربى يدل على بلوغ هذه
المرحلة الاجتماعية من التقدم العصرى . ولقد مر الصراع
الاقتصادى بين اليهود والمسيحيين فى الغرب فى ثلاثة
فصول :

ففى الفصل الأول - كان اليهود موضع الكراهية
بقدر ما كانوا طائفة لا غنى للمجتمع عنها . بيد أن سوء
المعاملة التى كانوا يلقونها ، كان يحد منها عجز مضطهدهم
من المسيحيين عن تدبير شئونهم اقتصاديا بدون اليهود .

واستهل الفصل الثانى فى البلاد الغربية - الواحد
تلو الآخر - بمجرد أن استحوذت البورجوازية المسيحية
الناشئة على قدر كاف من الخبرة والمهارة ورأس المال ،
بث فيها شعور القدرة على انتزاع المكانة التى يحتلها اليهود
المحلون . وعند هذه المرحلة ، استخدمت البورجوازية
المسيحية قوتها التى فازت بها لتؤمن طرد منافسيها من
اليهود . وهذه المرحلة بلغت انجلترا فى القرن الثالث
عشر الميلادى واسبانيا فى الخامس عشر ، وبولندا والمجر
فى القرن العشرين .

وفى الفصل الثالث كانت البورجوازية المسيحية قد

وطدت مكانتها ، وتمكنت تماما من الفنون الاقتصادية لدى اليهود الى درجة لم يعد خوفها التقليدى من عواقب الاستسلام للمنافسة اليهودية - يمنعها من الافادة من المقدرة الاقتصادية عند اليهود لخدمة الاقتصاد المسيحى ، وبهذه الروح أجازت حكومة توسكانا عام ١٥٩٣ وما بعده للاجئين اليهود الوافدين من أسبانيا والبرتغال الاستقرار فى لجهورن . وكانت هولندا منذ عام ١٥٧٩ قد فتحت أبوابها لهم . أما إنجلترا التى أحست فى نفسها القوة الكافية لطرد اليهود منها عام ١٢٩٠ عادت فشعرت مثل هذه القوة لتجيز لهم العودة اليها منذ عام ١٦٥٥ .

وسرعان ما تلا تحرر اليهود اقتصاديا خلال العصر الحديث من تاريخ الغرب تحررهم اجتماعيا وسياسيا ، نتيجة الثورات الدينية والايديولوجية المعاصرة فى العالم المسيحى الغربى . فان الاصلاح البروتستانتى قد حطم جبهة الكنيسة الكاثوليكية الموحدة والمعادية لليهودية . ومصادقا لهذا ، نجد إنجلترا وهولندا فى ابان القرن السابع عشر مرحبان باللاجئين من اليهود ، باعتبارهم ضحايا الكاثوليكية الرومانية عدوة هذين البلدين البروتستانتين . وترتب على هذا أن شارك اليهود - بصفة عامة - فى ثمرات روح التسامح المطرد فى النمو فى البلاد البروتستانتية والكاثوليكية على السواء . وما أن حل عام ١٩١٤ حتى كان تحرر اليهود - رسميا فى

جميع مجالات النشاط البشرى - حقيقة مقررة منذ امد طويل ، فى جميع بقاع العالم الغربى الحديث . وذلك باستثناء تلك الاراضى التى كانت تكون فيما مضى المملكة المتحدة لبولندا وليتوانيا والذى ضمت أخسيرا الى الامبراطورية الروسية .

ولقد قر فى الأذهان كما لو أن المشكلة اليهودية قد وجدت حلا يقوم على امتزاج الجماعتين المسيحية واليهودية عن طريق اتحاد قائم على حرية الاختيار من كلا الفريقين . لكن ما لبث أن دخلت المشكلة اليهودية فى فصل رابع أشد هولاً من أى شىء سبقه . فما الذى قاد الى هذا المصير ؟

لقد نكأ الجرح القديم ذلك الحاجز السيكلوجى الذى ما برح قائماً بين المسيحيين من أهل الغرب واليهود . وحتى بعد أن أزيلت - رسمياً - الفوارق القانونية بينهما كان ثمة « جيتو » (١) استمر المسيحيون يحصرون اليهود داخل نطاقه . كما تابع اليهود - من ناحيتهم - عزل أنفسهم عن المجتمع المسيحى الغربى . فما انفك اليهودى وهو يعيش فى مجتمع موحد من الوجهة الرسمية يجد نفسه شخصاً منبوذاً بمختلف الأساليب الملتوية ، بينما ألقى الانسان المسيحى نفسه لا يزال يجابه تضامناً وثيقاً - ماسونياً -

(١) الجيتو Ghetto حى اليهود ، وكان لايسمح لهم

بالاقامة خارج حدوده .

يربط اليهود بعضهم ببعض كما يواجه طموحا يهوديا للمطالبة بالمزايا التي يسبغها المجتمع الموحد على جميع أفرادها بما في ذلك اليهود ، لكن اليهود - من جانبهم - ما كانوا على استعداد لمنح غيرهم هذه المزايا .

فكان أن واصل الفريقان كلاهما اتباع مقياس مزدوج فكان ثمة سلوك رفيع لتعامل المرء مع أفراد طائفته ، وسلوك آخر أقل مستوى يتعامل به مع بقية مواطنيه - بالاسم - الساكنين في الجانب الآخر وراء الحاجز الاجتماعي الذي كان مفروضا أنه لم يعد قائما . وأن هذا الرداء الجديد من النفاق الذي تحفظ في طياته رذيلة الجور القديمة ، عمق شعور الازدراء والاستهانة الذي يحس به كل فريق ازاء الآخر . ومن ثم جعل الموقف بينهما أشد توترا وأقل احتمالا .

وأظهر تجدد النزعة المناهضة للسامية . دقة العلاقة بين الطائفتين . وذلك حينما تعاظمت نسبة اليهود العددية الى مجموع السكان من العنصر المسيحي ، فبدأ هذا الاتجاه واضحا للعيان عام ١٩١٤ في لندن ونيويورك نتيجة للهجرة اليهودية التي تدفقت منذ عام ١٨٨١ من الاراضي البولندية واللوانية السابقة التي ضمت للامبراطورية الروسية . هجرة تمت بتأثير الاضطهاد القيصري . واشتدت هسة النزعة ضراوة في النمسا الالمانية وفي الرايخ الالمانى نتيجة لهجرة يهودية أخرى ، وفدت اليهما خلال الحرب العالمية

الاولى من غاليسيا وبولندا ومن المقاطعات الشرقية لما يسمى
بـ « الحظيرة الروسية » • ولم تكن هذه النزعة المناهضة
للسامية في ألمانيا هي أضعف العوامل التي حملت النازيين
الألمان الى تقلد زمام الحكم •

الفصل الخامس

فكر اليهودي بين لقومية والعالية

١ - الشعوبية اليهودية

ثمة شعور دائم بالكراهية بين اليهود وغيرهم قاد الى تلك المآسى التى حلت باليهود والمذابح التى تعرضوا لها على مدار تاريخهم . ومناطق هذا الشعور عجز اليهود وغيرهم - على السواء - عن وضع تعريف لليهودى . فهل يقصد بالاصطلاح تابع لديانة اسمها اليهودية ، أو أنه يعنى المساهم فى ثقافة جماعة تتشبهت بأصالتها الشعوبية رغم تشبتها وتفرقها بين الأمم ؟ وهذا التعصب للشعوبية هو الذى حال بين اليهودية ومن أن تصبح عقيدة عالمية تفتىء الى ظلالها الأمم والأجناس على اختلافها . بل ان اليهودية - بلسان التلمود - لتضع خطا فاصلا يميز بين حقوق اليهودى وحقوق غيره من أبناء الشعوب الاخرى . وهذا التعصب الشعبوى اليهودى هو الذى جعل ظهور المسيحية والاسلام كدينين عالميين أمرا مقضيا ورحمة أدرك الله بها عباده : كما بينا بموضع سابق من هذه الدراسة .

ولقد بلغ من حرص اليهود على شعوربيتهم أن ابتكر أحبارهم فكرة الشعب المختار وبشوا فى أبناء قومهم الايمان بأنهم شعب مختار ذو رسالة قومية . وابتغوا أن يمنحهم

ذلك الايمان القدرة الروحية على الحفاظ على ذاتيتهم طوال
تشتتهم بين الامم عقب فقدانهم دولتهم القومية وملاذهم
الوطنى . وبالتالي ، فان عقيدة دينية كان مقدرها لها أن تغدو
عقيدة دينية عالمية ، قد انقلبت رسالتها على أيدي من تقبلوها
عطية من الله ، الى أداة للحفاظ على وعيمهم القومى المميز
وذلك باعتبارهم جماعة شاذة ما انفكت تعتمد عزل نفسها
عن بقية الجنس البشرى ، وان اقتضاهم ذلك مشقة
وعنادا بالغين ، وعرضهم لاضطهاد العالم لهم وثقمتهم
التواصله عليهم .

ومن ثم ، ما برحت اليهودية منذ ظهورها حتى الوقت
الحاضر ، عبادة قبلية لجماعة خاصة متفردة ، ولم تتوقف فى
أى وقت من تاريخها عن أن تكون جزءا لا يتجزأ من الثقافة
الخاصة لهذه الجماعة . وذلك كله رغما عن تطور فكرة
الاله اليهودى ليصبح الحقيقة الروحية المطلقة للكون
بأسره : أى رغم اسباغ صفة العالمية عليه ، وما يعنيه ذلك
من الارهاص بصيرورة العقيدة اليهودية عقيدة للعالم
بأسره . بيد أن تشبث اليهود بنزعتهم القبلية قاد الى
تجحر العقيدة اليهودية .

ويعتبر الاستاذ توينبى اليهودية أقبح أمثلة عبادة
الذات الفانية صيتا . وتفسير ذلك أن شعب مملكتى
اسرائيل ويهودا قد رفع نفسه مكانا ساميا ابان فترة من

تاريخه الذى بدأ فى طفولة الحضارة السريانية وبلغ الأوج فى عصر الأنبياء . وتم ذلك بفضل تقبله فكرة وحدانية الدين : سمح هذا الشعب لنفسه أن تفتنه فى هذه المرحلة الفذة - وإن كانت انتقالية - فى ارتقائه الروحي فكرة الشعوبية الرائفة . فان اليهود بعد أن تنبثوا بالحقيقة المطلقة الخالدة ، تركوا لأنفسهم العنان لتستهويهم حقيقة ناقصة : نسبية وموقوتة ، مدارها اعتبارهم السمو الروحي الذى بلغوه امتيازاً خلعه الرب عليهم وحسد لهم بموجب عهد أبدي يجعل منهم شعب الله المختار .

وهكذا أضلتهم الحقيقة الناقصة فأردتهم فى خطأ مميت . وإن احتضان اليهود صفة شعب الله المختار قد جرفتهم الى العقم الفكري . وبذلك قضى على اليهودية كدين عالمي ، لسعيها وراء أمل ضائع ، وحطمت نفسها ببلاهة بتحديها قوة روما المادية فى ابان الحرب الرومانية اليهودية فى السنوات : ٦٦ - ٧٠ م و ١١٥ - ١١٧ و ١٣٢ - ١٣٥ فى حين انتشرت المسيحية بفضل اعتناقها صفة الوداعة وتشبثها بأسلوب المسألة . وكان تنكر اليهود لرسالة المسيح القائمة على المسألة والوداعة يعنى تنكرها لماضيها بل لقد خسرت اليهودية مستقبلها كذلك لا يثار اليهود العنف والقوة المادية البحتة .

٢ - علاقات الشعوبية اليهودية ببقية العالم

كانت مصر أول أمة تصادمت مع اطماع الشعوبية اليهودية ولمست الخطر اليهودي . فكان أن استقر في شعور المصريين الباطن احساس خطر الشعوبية اليهودية فآمنوا ايماناً لا يرقى اليه الشك بضرورة صد الاطماع اليهودية مهما كلفهم الامر . ولم تتوان مصر في أية مرحلة من تاريخها الطويل العريق عن العمل لكبح جماح الشعوبية اليهودية .

ومهما يكن من أمر التسامح الذي تبديه الشعوب على اختلافها تجاه اليهود ، فما برحوا يصرون على عزل أنفسهم عن المجتمعات الاخرى . ولا يزال الانسان المسيحي أو المسلم يجابه تضامناً وثيقاً - ماسونياً - يربط اليهود بعضهم ببعض . كما يواجه طموحاً يهودياً للمطالبة بالمزايا التي يسبغها المجتمع الموحد على جميع أفرادها بما في ذلك اليهود ، بينما لا يبدي اليهود أى استعداد لمنح غيرهم هذه المزايا .

وهكذا تعثرت دعوة الاندماج التي تدعو اليها قلة من اليهود تنادى بأن تكون العقيدة اليهودية كبقية العقائد الدينية . ومن رأيها أن فلسطين تعجز عن استيعاب اليهود جميعاً وأن لا مناص من بقاء غالبيتهم الساحقة خارجها ، وان في تمسك اليهود بذاتيتهم القومية داخل

الأوطان التي ينتسبون إليها من الوجهة الرسمية ، يمكن سر كراهية شعوبها لهم ومعاداتها لليهود عامة . ويمثل هذا الاتجاه في الولايات المتحدة المجلس الأميركي لليهودية .

وتتخذ اليهودية العالمية من فكرة « عداء السامية » وسيلة لابتزاز الحكومات والأفراد . وتطالبنا في هذا المجال اتفاقية التعويضات الألمانية المعقودة في ١٠ من سبتمبر سنة ١٩٥٢ ، ووافقت فيها ألمانيا على أن تدفع لإسرائيل مبلغ ٧١٥ مليون دولار من البضائع بالإضافة إلى مبلغ ١٠٧ مليون دولار تعويضات لأفراد يهود . لكن أثارت هذه الاتفاقية النفوس الألمانية وأصبحت عاملا من عوامل انتعاش النازية في ألمانيا ، وأججت كراهية اليهود في تلك البلاد .

وإذا ما ولى الباحث وجهه شطر مركز اليهود في البلاد الاشتراكية الأوروبية ، طالع سعى اليهودية العالمية إلى إخراج يهود تلك البلاد خشيّة ذوبانهم في المجتمع الاشتراكي . وتحتج اليهودية العالمية بأنبعاث العداء للسامية في تلك البلاد . وتدلل على رأيها بقيام ستالين عام ١٩٤٨ بترحيل الكتاب اليهود إلى سيبيريا واتهام طائفة من الأطباء اليهود عام ١٩٥٢ بالتآمر على اغتيال الزعماء السوفييت ، وما قيل عن عزمه على ترحيل اليهود جميعا إلى سيبيريا للتوطن في إقليم « بروبسدجان »

ذى الحكم الذاتى . وانه وان سمح للكتاب اليهود بمغادرة
سيبريا بعد وفاة ستالين ، لكن لايسمح لليهود فى الوقت
الحاضر باصدار صحيفة بلغة يهود أوروبا الشرقية «اليديش»
بالاضافة لتحريم تعليم تلك اللغة بالمدارس مما ينبىء
— كما تقرر اليهودية العالمية — عن نية الدولة السوفيتية
لاهدار الذاتية اليهودية المميزة وتحويل اليهود السوفييت
الى مواطنين عاديين . وتدلل اليهودية العالمية على تآكل
الذاتية اليهودية فى الاتحاد السوفييتى بما لاحظته وقد
الحاخامات اليهود الأمريكيين الى روسيا من توق اليهود
فيها لاشباع جوعهم الروحى — كما قالوا فى تقريرهم —
لكن الدولة السوفيتية لا تتيح لهم الفرصة . ولا يجد
الجيل الحديث المدارس والكتب التى تبث الذاتية
اليهودية المميزة فى عقول اليهود السوفييت ونفوسهم ، كما
لا توجد الزعامة التى تجمع حولها هؤلاء اليهود فتحيلهم
— كما فى الولايات المتحدة — الى قوة تعلن ارادتها ومطالبها
ولا تسمح السلطات السوفيتية بتداول المطبوعات الصهيونية
ولا تأذن لى يهودى بالهجرة من البلاد .

٣ - العلاقة بين المسيحية واليهودية

بقدر ما كانت العلاقة بين المسيحية واليهودية واضحة
اليهود وضوحا يلغونه ، كانت غامضة للضمائر المسيحية
غموضا مربكا .

وبعبارة أوضح ، كانت العقيدة المسيحية في أعين اليهود ، نحلة يهودية مارقة . ويصفون الانجيل بأنه إضافة أقيمت على التوراة ، وما السيد المسيح لدى اليهود إلا حاخام يهودي اجتمع حوله خونة العقيدة اليهودية ، وقد كرمه أتباعه بعد وفاته بأسلوب كان شائعا بين الوثنيين ؛ إذ اعتبروه ابن الله من أم بشرية فالصقوا به الاساطير التي كانت شائعة عن البشر المؤلهين أو الآلهة ذوى الصفات البشرية أمثال أوزوريس في الاساطير المصرية القديمة ، وديونيسيسوس في الاساطير اليونانية (وديونيسيسوس هو باخوس في الاساطير الرومانية ، اعتبر في العصور المتأخرة أب الخمر ولكنه في الاصل الروح التي تتحكم في مصائر الانبات وتسيطر على الزراعة) . وتخادع اليهودية نفسها بأنه كان في وسعها أن تحرز انتصارات المسيحية في استهواء العالم الهليني لو أنها أحنت رأسها لفكرة التوسع ونزلت الى مستوى المسيحية .

أما المسيحية فانها لم تنكر إطلاقا شرعية كتساب اليهود المقدس ، بل انها قد ادمجته في كتابها المقدس ذاته واستطاعت المسيحية - وفقا لوجهة النظر اليهودية - انجاز فتوحاتها في يسر وسهولة بفضل اعراضها عن مبادئ أساسيين تضمنتها الوصيتان الأولى والثانية من الوصايا العشر : الوجدانية ، ونبد عبادة الصور والتماثيل .

وتستطرد اليهودية قائلة بأن عقيدتها اذ تواجه وثنية عاتية ظاهرة بوضوح تحت قشرة المسيحية ، غدا واجبا عليهما أن صامدة متمسكة بأداء رسالتها في حمل كلمة الرب السرمدية .

والحق أن الاخلاص التام للوحدانية وتحريم تقديس الصور والتماثيل تحريما لا هوادة فيه ، لم يحل بين اليهودية وكراهية الاسلام كراهية عمياء والكيد للمسلمين منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى الآن . وفي هذا يقول الله في محكم آياته « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » .

وفي اعتقادي أن عداة اليهود للمسيحية له عاملان أساسيان : -

الأول - روحانية المسيحية . فانها تنادى بأن ملكوت الرب في الآخرة لا في الدنيا . وهذا عكس ما تنادى به اليهودية من أن ملكوت الرب في الدنيا وانه تعالى قد اصطفى اليهود دون بقية البشر فوعدهم باقامة دولة عاصمتها اورشليم تتحكم في أنحاء العالم بأسره ويكون اليهود فيها السادة وغيرهم (ويطلقون عليهم الأميين - الجويم -) العبيد .

الثاني - اعتقاد اليهود بأن الخلاص (أو الغفران)

يمنحه الرب لليهود وحدهم • وهذا الخلاص - كما سلف القول - له صورة دنيوية تعنى تملك اليهود رقاب البشر وأخرى أخروية تعنى استئثار اليهود بجنة الله وحدهم • فى حين أن الخلاص عند المسيحية للبشر جميعا وصورته روحية •

ويكره اليهود الاسلام لأنه سلبهم احتكار مبدأ الروحانية ، ولأن الاسلام يتسامى فى مبادئه على اليهودية بما لا يقاس • بالاضافة الى عالمية الدين الاسلامى • فالإيمان بالله الواحد الاحد الفرد الصمد ليس نعمة اختص الله بها اليهود وحدهم أو أى جنس آخر ، بل أنها متاحة للبشر جميعا لا فرق بين عنصر وآخر •

ولقد هاجمت الروح القومية الغربية الحديثة فكرة الانتشار اليهودى فى العالم الغربى على جبهتين فى وقت واحد •

فالروح القومية الغربية بجاذبيتها من ناحية وضغطها فى الوقت نفسه من ناحية أخرى ، قد دفعت اليهود الغربيين الى اختراع قومية تقتصر عليهم وحدهم ، ويمكن وصفها بأنها شكل جماعى للاقتباس من الغرب ، ان قورن بالشكل الفردى من هذا الاقتباس الذى يقترون - عند اليهود - بعصر الليبرالية الذى بلغ 'وجهه فى ابان القرن التاسع عشر •

واذا كان المثل الأعلى في التأثر بالغرب هو تحويل الفرد اليهودي الى بورجوازي غربي يدين باليهودية . فان المثل الأعلى البديل له يهدف الى تركيز اليهود المشتتين - أو جانب منهم - في دولة قومية خاصة بهم لا تضم الا سكانا متجانسين من اليهود . هذان الاتجاهان دليان على أن تحرير اليهود كان من الصديق بحيث مكنهم من الاستجابة للأفكار الغربية الشائعة .

٤ - اتجاهات الشعوية اليهودية

كانت الصهيونية في الوقت ذاته - بشهادة مؤسسها تيودور هرزل Theodor Herzl - قرينة على قلق اليهود من اغلاق الطريق الذي يؤدي الى استيعابهم كأفراد في المجتمعات الأخرى ، بتأثير العصبية القومية بين المسيحيين الغربيين تلك العصبية التي وفدت سريعا في أعقاب النزعة الليبرالية وقد لا يكون من قبيل المصادفة - والحالة هذه - أن تنبعث على التتابع : الصهيونية اليهودية والنزعة الجديدة المناهضة للسامية ، في نفس المنطقة الجغرافية ، وهي الأراضي التي يتحدث أهلها الألمانية من الامبراطورية النمساوية ، قبل تفككها عام ١٩١٨ . ومن بين جميع سخریات التاريخ الكثيرة لا يلقى أي منها ضياء نافذ على الطبيعة البشرية ، مثلما تلقى تلك الحقيقة السافرة ، وهي أنه غداة افطع ألوان الاضطهاد المتعددة التي حلت بالشعب اليهودي في

تاريخه ، نجد اليهود أصحاب النموذج القومى الجيد - الصهيونية - يقيمون على أنفسهم الحجة بأن الدرس الذى تعلمه الصهاينة من الفظائع التى قام بها النازى ضد اليهود لم يدفعهم الى تنكب ارتكاب نفس الجريمة التى كانوا هم ضحاياها . بل راحوا يضطهدون شعبا أضعف منهم وهم الفلسطينيون العرب ، الذين كانت كل جريمتهم لدى اليهود ان فلسطين كانت وطن أجدادهم .

وإذا كان اليهود الاسرائيليون لم يقتفوا آثار النازيين الى درجة إبادة العرب فى معسكرات الاعتقال وحجرات الغاز فانهم استصفوا غاليبيتهم وقد جاوزوا نصف مليون - بطردهم من الأراضى التى شغلوها وزرعوها أجيالا هم وآباؤهم من قبل ، والاستيلاء على المتاع الذى عجزوا عن حمله أثناء فرارهم ومن ثم أصبح العرب ، فى حالة العدم ، وغدوا « قوما لاجئين » وأثبتت هذه التجربة الصهيونية ، فيما أثبتت من نتائج ، نقطة وردت فى مكان سابق من هذه الدراسة . الا وهى ان الخصائص « اليهودية » التى ظالما ألصقها المسيحيون منذ أمد طويل باليهود المقيمين بين ظهرانيهم ، هى حصيلة الملابس الخاصة التى صاحبت تشتت اليهود فى أنحاء العالم الغربى . ولا ترجع - أى الخصائص اليهودية - الى أية خلة عنصرية خاصة موروثة . ان تناقض الصهيونية ، أنها اذ تبذل جهدها الشيطاني لتشديد صرح جماعة يهودية لحما ودما ما برحت

يعمل بنفس العذر من التمسّاط لاحتراط اليهود في عالم
غربي . مسلما دأب الفرد اليهودي على التطلع الى ان يصبح
بورجوازيّا غربيا يهودي العقيدة ، أو بورجوازيّا لا ادريا .
ان اليهودية في تاريخها . عبارة عن نشئت ، وان
الطبع اليهودي والنظم اليهودية - من ولاء مغرق في الحسد
لشريعته موسى ، والتزم تام لقواعد وأحكام التعامل
التجاري والمالي - كانت من الاعمال التي جعل منها التشتت
اليهودي على مر الايام والعصور ، طلاسما اجتماعية ، منحت
هذه الطائفة المتفرقة جغرافيا ، قدرة سحرية على البقاء
ولكن يهودا محدثين اصطبعوا بالصبغة الغربية - سواء
انتموا الى المدرسة الليبرالية أو الى الصهيونية - خرجوا
على هذا الماضي التاريخي . وكان خروج الصهيونية عليه
أشد عنفا ، مما فعله اليهود مريدو الليبرالية .

فان الصهيونية بنبذها تقاليد (التشتت) اليهودي
جملة ، لتقيم أمة جديدة على ظهر الارض على غرار
ما فعله الرواد البروتستانت المحدثون من المسيحيين الغربيين
الذين أقاموا الولايات المتحدة الأمريكية واتحاد جنوب
أفريقيا وأستراليا ونيوزيلندة . أجل ان الصهيونيين
بعقليتهم هذه كانوا يدمجون أنفسهم في الوسط الذي
يطلقون عليه « الأمل » واذا كانوا يقولون بتلقيهم الوحي
من أسفارهم فان هذا الوحي ليس هو الوحي الذي تلقوه
عن شريعة موسى ، ولا هو وحي الأنبياء ، لكنه وحي تلقوه
من القصص الواردة في سفر الخروج ويشوع .

فلقد ورد فى سفر الخروج آية ٣٦ اصحاح ١٢ ، أن اليهود سلبوا المصريين الفضة والذهب والأمتعة والثياب . كذلك جاء فى الآيات ٢٩ - ٣١ من نفس الاصحاح أن الرب - رب اليهود - ضرب المصريين جميعا من فرعون الى الاسير فى السجن ، بل ضرب كل بهيمة حتى لم يكن بيت ليس فيه ميت . وورد فى سفر يشوع - ويشوع خلف موسى بعد موته (أو قتله فى رأى فرويد العالم النفسانى اليهودى) انه الرب أمره بالاستيلاء بالقوة على كل أرض تدوسها أقدام بنى اسرائيل من البرية ولبنان الى نهر الفرات وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس . وورد فى الاصحاح السادس من هذا السفر (آيات ٣١ - ٣٥) تفصيل ما فعله اليهود بمدينة أريحا عند دخولهم اياها بقيادة يشوع . اذ سلبوا المدينة وقتلوا أهلها ولم ينج منهم - كما تقول الآية ٣١ - رجل أو امرأة أو شيخ ، حتى البقر والغنم والحمر ذبحها اليهود ، لكن نجت امرأة تصفها التوراة بأنها زانية تدعى راحاب لأنها خبأت لديها جاسوسين اسرائيليين بعد ما أمضيا الليلة فى فراشها - كما تقول التوراة . ولقد خلدت حكومة اسرائيل اسم هذه المرأة الزانية باطلاق اسمها على مدينة راحابوت . وفعل اليهود بالمدن والقرى الاخرى التى دخلوها بقيادة يشوع ما فعلوه بأريحا من سلب وذبح وتخريب فى معاملتها لعرب فلسطين وبهذه الروح اتجه الصهاينة الى احوالة أنفسهم الى ارحابيين .

ولا يمكن في بحثنا عن الصهيونية أن نغفل الاتجاه
السياسة الأمريكية المؤيد لإسرائيل قلبا وقالبا • والحق ،
ما برح العامل المحدد لسياستها الفلسطينية كامنا حتى
اليوم - كما يقرر الأستاذ توينبى - فى التفاوت الكبير فى
عدد و ثراء ونفوذ كل من العنصرين اليهودى والعربى فى
مجموعة سكان تلك البلاد • اذ يبدو الأمريكيون العرب -
ان قورنوا باليهود الأمريكين - كما مهملا ، حتى وان أخذ
فى الحسبان أولئك العرب اللبنانيون ذوو الأصل المسيحى .
أما الجانب اليهودى من كتلة المواطنين الأمريكين ، فإنه
يمارس سلطانا سياسيا لا يتناسب اطلاقا مع عدد أفرادهِ
ذلك لأن اليهود الأمريكين يتركزون بمدينة نيويورك ،
وهذا أمر له وزنه فى معترك المنافسة على كسب الأصوات
فى السياسة الأمريكية المحلية فى دولة رئيسية • على
أن تقديرات الساسة من المسيحيين الأمريكين المستهترين
لأصوات اليهود فى الانتخابات ، ليست هى - كما يتجه
إليه اعتقاد بعض المراقبين الذين يقلون عن هؤلاء الساسة
حمقا - التفسير الكامل للتأييد الساحق الذى ما برحت
الولايات المتحدة تبذله للصهاينة • اذ لم تكن هذه السياسة
انعكاسا لمجرد تقديرات خاصة لاعتبارات داخلية وانما
كانت انعكاسا لشعور الرأى العام فى أمريكا باللامبالاة
ومثاليته وتشويه معلوماته •

لقد ألقى الأمريكيون أنفسهم قادرين على التدخل فى

المصائب التي أنزلها النازيون في أوروبا باليهود ، ذلك لأن يهودا آخرين كانوا يمثلون نماذج بشرية مألوفة في حياتهم اليومية ، أما العرب فليسوا منتشرين في الحياة يذكرون الأمريكيين بنكبات عرب فلسطين . ان الغائبين دائما مخطئون .

ويتفق الصهاينة مع المدرسة المنافسة لهم أعنى مدرسة الفكر اليهودي المتحرر التي تنادى بادماج اليهود في كل دولة في عناصر تلك الدولة الاخرى . أجل يتفق الفريقان في الرغبة في علاج اليهود من ضعفهم كطائفة شاذة . لكن تختلف نظرة كل من المدرستين في التطبيق : وقوام المثل الأعلى للاندماجين أن يصبح اليهودي في هولندا أو انجلترا أو أمريكا مجرد مواطن هولندي أو انجليزى أو أمريكى ، يهودى الدين . ويستندون في ذلك الى أنه ليس ثمة ما يبرر اخفاق المواطن اليهودي في أى بلد مستنير في أن يصبح مواطنا مندمجا راضيا في هذا البلد ، لمجرد تصادف توجهه الى المعبد اليهودي يوم السبت عوضا عن الذهاب الى الكنيسة يوم الأحد .

ويرد الصهاينة على ذلك باجابتين :

الأولى - تشير الى أنه بفرض قدرة طريقة الاندماج على احداث النتيجة التي ينسبها لها المدافعون عنها ، فانها قابلة للتطبيق فقط في تلك البلاد المستنيرة . وأمثال هؤلاء اليهود يكونون أقلية ضئيلة جدا من يهود العالم .

الثانية - تدعى أنه حتى فى ظل احسن الظروف لن يتأتى حل المشكلة اليهودية بهذه الطريقة لأن كون المرء يهوديا شيء أبعد مدى من كونه يهودى الدين .

واليهودى الذى يسعى لتحويل نفسه الى هولندى أو انجليزى أو أمريكى ، يشوه - فى أعين الصهاينة - شخصيته اليهودية ، دون أن تكون لديه أية نية فى اكتساب شخصية الهولندى الكاملة أو أية جنسية أخرى يقع اختياره عليها من بين جنسيات الأمم الأخرى ، فأحرى أن تنفذ عملية الاندماج - كما يدعى الصهاينة - على أساس قومى لا فردى . فبدلا من أن يحاول الأفراد اليهود عبثا الاندماج بحيث يصبحون أفرادا انجليز أو هولنديين ، يجب على الشعب اليهودى نفسه أن يتحول الى شعب يماثل الشعب الانجليزى : وذلك بإنشاء وطن قومى يغدو فيه اليهودى كالانجليزى فى انجلترا سبيدا فى بيته الخاص .

٥ - الغاية من انشاء اسرائيل

تستند الشعوبية اليهودية على دعامتين :

الأولى : التشتت .

الثانية : الغيتو

ويمكن للباحت تشبيه الشعوبية اليهودية بوقعة يحرس حيوانها داخل المحارة على البقاء فيها وعدم مغادرتها

الا بالقدر اللازم لمصلحته ، فان غادرها تعرض لعسوامل التطور التي اما أن تحيله الى كائن جديد أو تقضى على ذاتيته ، ان لم يتواءم مع البيئة الجديدة .

ويطالع الباحث حقيقة لاغاري، مبنها أن الصهيونية قد نشأت في غمار ايمان أوروبا الغربية بالليبرالية عمليا بما تضعه بين ثناياها من اندماج عناصر السكان على اختلافهم ، ويعنى هذا نهاية المعزل اليهودى « أى الغيتو » الذى عاش اليهود بين ظهرائية . وفى هذا المعزل أمكن اليهودى كفالة ذاتيته وان لم يحل بينه وبين الاختلاط بالعالم الخارجى بالمقدار الذى يتفق ومصلحه المادية . ثم جاء قيام الاشتراكية فى الاتحاد السوفييتى ودول أوروبا الشرقية ضربة قاضية على نظرية الغيتو . فلقد أجبر اليهود على الاندماج بسكان البلاد والعمل معهم جنبا الى جنب فى جميع المهن ومنها الزراعة التى يأنف اليهودى من الاشتغال بها لأنها تربطه بالأرض فتقضى على ذاتيته المميزة القائمة على حرية الحركة كلما تطلب الحفاظ على ذاتيته انتغير والتحول .

فكان أن أصر مفكرو اليهود على ضرورة انشاء دولة اسرائيل ليتكون منها « غيتو » دولى يحفظ لليهود ذاتيتهم المميزة ويحول دون استيعاب الامميين « الجوييم » لهم على طول المدى ، وهو ما جاهدت الشعوبية اليهودية لتلافيه طيلة ٢٥٠٠ سنة .

وتصورت اليهودية أن انتباه الغيتو الدولي - ممثلاً
في إسرائيل - يحقق لها نفس الأغراض التي يحققها العيش
المحلي ، أى :

أولاً : الحفاظ على الذاتية اليهودية بطريقة جديدة
مدارها أن يكون لكل يهودى جنسيتان : اسرائيلية وترمز
لتبعية الروحية وهى موطنه الأصيل فى نهاية المطاف ،
وجنسية البلد الذى يقيم فيه وترمز الى مصلحته المادية
الموقوتة . وعندئذ يصدف اليهودى غير المقيم بإسرائيل
عن الاندماج بمواطنيه ويظل يتطلع الى إسرائيل روحانياً
وتتصل بينه وبينها العلاقات بفضل السياحة والزيارات
والمؤلفات . وتستفيد إسرائيل من وراء ذلك أموالاً تتدفق
عليها من اليهودية العالمية دون خطر عليها من اندماجها
بالأميين . وهذا لعمري تفسير رغبة أقطاب اليهود العارمة
فى نقل يهود البلاد الاشتراكية الى إسرائيل لخشيتهم من
فقدان ذاتيتهم المميزة على طول المدى .

ثانياً - الافادة من التشنت « أى من الأميين » بما
لا يؤثر فى معدن الذاتية اليهودية وتوهم أقطاب اليهود
أن تتولى إسرائيل القبض على ناصية التجارة والمال فى
الشرق الاوسط ، فتحقق لهم السيطرة على العالم . وها هنا
تصبح الأحلام التى راودت أحبار اليهود ابتداء من عزرا عن
صيرورة أورشليم عاصمة امبراطورية يكون فيها الشعب
المختار سيد العالم بأسره ، تصبح حقيقة واقعة .

وفى سبيل ذلك تتحالف الصهيونية مع الاستعمار
العالمى ومع الامبريالية الخاضعة لنفوذ يهود نيويورك ومع
الرجعية التى تتستر وراء الدين لكفالة استغلالها للشعوب
وكان وعد بلفور ثمرة هذا التحالف الذى تكاثفت على
تحقيقه عمليا قوى الاستعمار البريطانى والامبريالية
الأمريكية والرجعية .

بيد أن التحدى الذى يمثله قيام اسرائيل فى الوطن
العربى يبرز الى الوجود استجابة الشعوب العربية التى
أصبحت اليوم تلمس خطر الشعوبية اليهودية على كيائها
وقد أخذت رياح التغير تدوى فى جميع أرجاء العالم العربى
مما يبشر بسلوكه طريق التقدم والارتقاء .

الفصل السادس

متناقضات مجتمع إسرائيل

التناقض سمة البشرية اللازمة . فلا يمكن أن يخلو فرد أو مجتمع من تناقض . وعلى كل فرد أو مجتمع علاج التناقض الكامن سواء في محيطه الداخلى أم في بيئته الخارجية والا أودى به .

بيد أنه مهما قيل عن تناقض مجتمع من المجتمعات البشرية سواء في الماضي أو الحاضر ، فلا يمكن أن يبلغ في حدة تناقضاته ما يبلغه اليوم مجتمع إسرائيل .

وأول ما يطالعنا في هذا السبيل التناقض بين اليهود عامة وبقية شعوب العالم : تناقض أصبح يتجسد في مجتمع إسرائيل . فاليهود يطلقون على أنفسهم شعب الله المختار ، بينما ينعتون بقية الناس بأنهم أمميون أى أنهم أنواع من البشر أقل من اليهود منزلة وقدرًا . ويمكن في هذا التناقض تفسير كراهية العالم لليهود حتى في المجتمعات التي اعتنقت الليبرالية أو الاشتراكية . فما انفك اليهودى فيها يهوديا ، ولا يزال هناك حاجز سيكولوجى يفصل اليهود عن غيرهم على الرغم من تقرير المساواة رسميا . وهذا التناقض قد جر الى المذابح والاضطهادات والنكبات التي حطت على اليهود ، فالعالم عاجز عن فهم اليهودية وما برح المفكرون يتساءلون عن كنه طبيعة اليهودية .

فهل يعنى انتساب امرئ الى اليهودية اعتناقه عقيدة دينية ؟

أو هل يعنى ذلك الانتساب مشاركته فى ثقافة جماعة
تحتفظ بطابعها العنصرى ومزاجها القومى الخاص رغمًا
عن تشبتها ؟

وظاهر أن مجرد اعتناق اليهودية لا يفسر كنه
الخصائص اليهودية . ذلك لأن العقيدتين المسيحية
والاسلام تضمان الكثير من أصول الديانة اليهودية الاصيلية
لكن الباحث لا يعثر على أمة مسلمة أو مسيحية تحوى تلك
الخصائص التى يشتهر بها اليهود فى كل زمان ومكان .
وهذه الخصائص هى التى تدفع اليهود لكراهية اعتناق
غيرهم ديانتهن وعدم ترحيبهم بنشرها بين الشعوب مثلما
تفعل المسيحية والاسلام وغيرهما من العقائد الدينية العالمية
الطابع .

ولقد اكتسب اليهود تلك الخصائص بسبب بقائهم
مئات السنين الطائفة الوحيدة التى تؤمن بوحدانية الدين .
فكان أن اعتقدوا أن هذه الميزة امتياز خلعه الرب عليهم
وحدهم بموجب عقد يمنحهم الله مقابل ايمانهم به سيادة
العالم فى الدنيا ونعيمه تعالى فى الآخرة . فأضلهم غرورهم
عن رؤية روحانية العقيدة المسيحية وعموا عن مشاهدة
ضياء الاسلام : وهما ديانتان عالميتان تسعيان لنشر أنعم
الله وأفضاله بين شعوب الأرض على اختلاف ألوانها
وتناديان بالمساواة المطلقة بين الأجناس دون استثناء .
فلا يزال اليهود أسرى القواعد التى وضعها تهم عزرا

اليهودى البابلى وقصد من اقامتها احاطة اليهود بسياج يحفظ العقيدة اليهودية من التأثير بالعقائد الوثنية من ناحية ويحول بينهم وبين الدوبان فى المجتمعات الأجنبية وقد جعل منهم هذا على طول المدى - وبعد انبعاث المسيحية والاسلام - مجتمعا متججرا من الوجهة الفكرية، وأقام بينهم وبين بقية العالم هوة فكرية سحيقة .

ولقد كان عدد يهود العالم فى سنة ١٩٣٩ حوالى ستة عشر مليونا ينتشرون فى جميع أنحاء أوروبا وجميع البلاد العربية - عدا السعودية - وتوجد منهم أعداد صغيرة فى معظم البلاد الآسيوية وشرق أفريقيا . ويبلغ عدد اليهود فى الوقت الحاضر ثلاثة عشر مليونا ينحصر معظمهم فى عدد محدود من البلاد وتغير توزيعهم تغيرا أساسيا . فبعد أن كانت أوروبا تضم قبل الحرب العالمية الثانية ٥٨ ٪ من يهود العالم ، أصبحت لا تضم الآن سوى ٣٠ ٪ منهم تقيم جمهورتهم الساحقة بالاتحاد السوفيتى ولا تأثير لهم البتة على الحركة الصهيونية العالمية ، الأمر الذى يقع الباحث الى استقائهم من دراسته لهذه الحركة . والمثل يقال - ولكن بدرجة أقل - بالنسبة ليهود أوروبا الغربية نظرا لعزوفهم عن فكرة الصهيونية العالمية ، ويبلغ عددهم أكثر قليلا من المليون .

والحق ، أصبحت فكرة الصهيونية العالمية تتجسد فى يهود الولايات المتحدة للأسباب التالية :

الأول - عددهم الضخم وتركزهم بالمدن الكبرى حيث يهيمنون على وسائل الاعلام بأنواعها مما يتيح لهم الضغط المعنوي والمادي على معارضيتهم وتسيير السياسة الأمريكية - وبالأحرى سياسة العالم الغربي - وفقا لمشية الصهيونية

الثاني - الولايات المتحدة أقوى أمم العالم في الوقت الحاضر .

وما هنا يطانعا واحد من المتناقضات الأساسية في الحركة الصهيونية . فانه على الرغم من تحمل أمريكا للطائفة اليهودية الذين يعزفون تماما عن الهجرة الى اسرائيل ، فانهم دائما على استعداد للتبرع لاسرائيل بسخاء والاستماتة في مناصرتها في المحافل الدولية ، لكن لا تهفو نفوسهم قط للهجرة الى أرض الميعاد والحياة فيها ومقاسمة أهلها مصيرهم المحتوم .

ومن ثمة على الرغم من اعتبار الصهيونية العالمية اسرائيل مركز اليهودية العالمية ، لا يقيم بها سوى مليونين من اليهود ، أي أكثر قليلا من ١٥٪ من يهود العالم .

ورغما عن صحبات أحبار اليهود وعلى رأسهم بن جوريون بدعوة يهود العالم للاقعة في اسرائيل - ففي زيادة عدد سكانها درع لها كما يزعمون - يعزف يهود البلاد الغربية عن التوجه الى اسرائيل مؤثرين التششت « أي Diaspora » « بالاصطلاح اليهودي » بل

مفضلين التعرض لعملية الاندماج بغيرهم من الشعوب
الأخرى أو ما يطلق عليه بالاصطلاح اليهودى «الأميين» -
الجوريم» .

على أن الصهيونيين العالميين لم يقبلوا الا على مضض
فكرة المركزية التى تدعيها اسرائيل لنفسها تجاه اليهودية
العالمية . ولا تزال حتى اليوم منظمات صهيونية ترفض
هذه الفكرة ولا تسلم بها اطلاقا . ففي سنة ١٩٦٣ ، دعا
ناحوم جولدمان الى ضرورة اشعار الطوائف اليهودية
المبعثرة فى أنحاء العالم (ويطلق عليها المنفى) بأهمية
الدور « التمركزى » الذى تمثله اسرائيل بالنسبة ليهود
العالم . واذا كان يهود أمريكا أشد معارضى الفكرة ، يرى
جولدمان أن الحركة الصهيونية الامريكية لم توفق فى تأدية
رسالتها ويلقى قسطا من اللوم على عاتق حكام اسرائيل
وعلى شبابها . كما يلوم بن جوريون يهود الولايات المتحدة
لاكتفائهم بالعون الأدبى والمساعدات المادية من غير المساهمة
الفعلية فى تزويد اسرائيل بما تفتقر اليه من خبرات .
واشتد النقاش بين الرايين فى المؤتمرات الصهيونية
حول هذا الموضوع حتى قبل ان يهود أمريكا يعتبرون
الصهيونية « رغبة أحد اليهود فى ارسال يهودى آخر الى
فلسطين بأموال يهودى ثالث » . والرأى السائد بين يهود
انولايات المتحدة والغالبية العظمى من أفراد الطبقات
البورجوازية أن تدبير هجرة كثيفة من هؤلاء اليهود
الى اسرائيل سوف يحدث اضطرابا عميقا فى أوضاع

هؤلاء اليهود وفي أساليب تفكيرهم ، فضلا عن انتفاء قدرتهم على تحمل قسوة الحياة في ظل أوضاع إسرائيل الحالية وبخاصة وان وهم العاطفة الدينية هو كل ما يربطهم بإسرائيل في الوقت الحاضر .

وازاء اشتداد هجمات بن جوريون على الصهيونية الأمريكية ، وعده بعض أعضائها بتدبير هجرة من اليهود الأمريكيين الى إسرائيل على أن يسبق هذا مرحلة اعداد خاص تقوم على انشاء شبكة من المدارس المتخصصة تدرس فيها التربية الاسرائيلية الى جانب اللغة العبرية . لكن اليهودية الأمريكية قد طعنت آمال أقطاب إسرائيل في الصميم وقتما أبانت نتيجة استفتاء بين يهود أمريكا حول موضوع الهجرة لإسرائيل أن قلة ضئيلة للغاية ترحب بالهجرة الى إسرائيل . وانكى من ذلك ما تظهره الإحصاءات عن رحيل اليهود ذوى الأصل الأمريكى أو الأوروبى الغربى عن إسرائيل وإيثارهم العودة الى بلادهم الأصلية .

واذ تنهار آمال الشعوبية اليهودية - ممثلة في إسرائيل - في هجرة يهود أمريكا وأوربا الغربية - الى إسرائيل ويتضح لها عدم جدوى التلويح بالعقيدة الدينية في اجتذابهم للاقامة في أرض الميعاد المزعومة ، تتعلق آمال اليهودية الشعوبية في الوقت الحاضر في نزوح ثلاثة ملايين يهودى - تقريبا - يقيمون في بلاد أوروبا الشرقية . وتحقق هذه الهجرة المرتجاة أمليين :

الأول - زيادة فى عدد سكان إسرائيل بحيث يجاوز عدد سكانها الخمسة ملايين نسمة .

الرابع - الحيلولة دون فقدان يهود أوروبا الشرقية - ولا سيما الروس - الخصائص اليهودية المميزة . فالواقع بينما تتألف الطبقة الحاكمة من يهود أوروبا الشرقية .
الثالث - الافادة من الخبرات التى اكتسبها يهود الاتحاد السوفيتى من العمل فى المزارع المشتركة وفى المصانع .

الرابع - الحيلولة دون فقدان يهود أوروبا الشرقية - ولا سيما الروس - الخصائص اليهودية المميزة . فالواقع ان الذاتية اليهودية قد أخذت تتآكل فى البلاد الاشتراكية بفعل ادماج اليهود فى اقتصاد البلاد القومى الخاضع لتخطيط الدولة . وما يعنيه هذا من القضاء على انغزالية اليهود وتفردهم فى مناطق خاصة يحتفظون فيها بذاتيهم المميزة .

لكن تأبى الحكومة السوفيتية السماح ليهوديهها بالهجرة . اذ تعتبرهم رعاياها ولا تقيم وزنا لعقيدتهم الدينية أو عنصرهم . وهذا ما يثير ثائرة الصهيونية العالمية .

فنجدها تشهر سلاحها التقليدى المفلول ، أى :

معاداة السامية • والاتحاد السوفيتي أبعد دول العالم بحكم مبادئه عن التحزب لدين أو مناهضة عنصر • على أن أقطاب اسرائيل يرون أن هجرة يهود أوروبا الشرقية اليها سوف يساعد هذه الدولة في تحسين مستوياتها السياسية والعسكرية والاقتصادية ، بل يرتهن نجاحها من الاخطار المحدقة بها - كما يقولون - بقرار تصدره الحكومة السوفيتية تطلق فيه الهجرة الى اسرائيل لليهود السوفيت •

وثمة سؤال من الأهمية بمكان عظيم يتوقف على الاجابة عليه مستقبل يهود أمريكا ، وبالأحرى مستقبل الصهيونية الدولية ، فهل يخشى ظهور حركة عداة للسامية في الولايات المتحدة مثل التي ظهرت في ألمانيا في عهد هتلر ؟ ان العداة للسامية كامن في الولايات المتحدة لم يظهر للوجود بعد لكن احتمالات ظهوره قائمة ، وهذا هو تفسير حرص أقطاب اليهودية الامريكية على عدم الترحيب بمهاجرين يهود الى تلك البلاد خشية اندلاع حركة مناهضة السامية فيها ، بالإضافة الى ما يبدو للباحث من اتجاه اليهود الأمريكيين صوب الاندماج السريع بالمجتمع الأمريكي • وهنا يبرز أمامنا تناقض خطير من التناقضات التي تزخر بها الشعوبية اليهودية • فانه وان ملأ يهود أمريكا العالم صياحا وبكاء على اسرائيل مندفعين لمؤازرتها ومساندتها ، لكن المشاهد أن الشباب اليهودي في أمريكا

يبتعد يوما بعد آخر عن تعاليم عقيدته الدينية وينأى عن خصائصه اليهودية تحت ضغط البيئة التي يعيش في محيطها ، وبفعل تأثير الحياة الأمريكية التي تفرض التوحد على معتنقي أساليبها . وإن من ظواهر العصر الحديث ضعف الوازع الديني بين الشباب . لكن نجد هذه الظاهرة على أشدها في أوساط الشباب اليهودي الأمريكي : ولا سيما أن هذا الشباب يقبل على الزواج من مسيحيين ومسيحيات مما يؤدي إلى ضعف الروح الدينية ويقود - بالذات - إلى زوال الخصائص اليهودية المميزة . وتقرر الإحصاءات أن ٧٠ ٪ من أبناء الزوجات المختلطة يهجرون اليهودية تماما . وقدر في واشنطن أن من بين زوجات اليهود ٣٧٪ زوجات مختلطة .

وليس أدل على ظاهرة اندماج اليهود الأمريكيين في المجتمع الأمريكي من ابتعادهم عن تعاليم التلمود ابتعاسا تاما بالنسبة للحفلات الجنائزية وطقوس الدفن ، والتزامهم - في هذا الشأن - العادات الأمريكية المتبعة . وتعتبر طقوس الدفن اليهودية إحدى دعائم الحفاظ على الذاتية اليهودية المميزة . ولعل رغبة اليهود الأمريكيين في تأييد إسرائيل رد فعل لجنوحهم صوب الاندماج بالحياة الأمريكية وتكفير عن تحليلهم المشاهد من الذاتية اليهودية المميزة .

والحق ، أنه ترتب على اعتناق الليبرالية والاشتراكية،

التخفيف من حدة كراهية السامية وتيسير اندماج اليهود في البيئات التي يعيشون في نطاقها . ويعتبر الصهاينة وأحبار الدين اليهودي فكرة الاندماج من أبشع الاخطار التي تهدد الشعوبية اليهودية . ولقد عبر ناحوم جولدمان عن هذا الرأي في إحدى اجتماعات منظمة الصهيونية العالمية يوم ١٦ مارس سنة ١٩٦٣ بقوله «الاندماج هو الخطر الكبير الذي يتهددنا منذ اللحظة التي خرجنا فيها من الجيتو ومن المعتقلات » .

ويعنى هذا القول أسف الصهيونية العالمية على انقضاء عهد الجيتو ، ذلك لانه قد أنتج على مدى القرون يهودا يعيشون عيشة يهودية مميزة تتباين ومعيشة الاقوام التي يعيشون بين ظهرانيها ، فكانوا يؤلفون مجتمعا داخل مجتمع . فكانت حياتهم هذه حائلا بينهم وبين الاندماج في غيرهم والزوال التام .

ولكن ، هل يوجد شيء اسمه الشعب اليهودي تعتبر اسرائيل جزءا منه ؟

عرف اليهود النفي والتشريد منذ القرن الثامن قبل الميلاد . ولم توفق جميع المحاولات التي بذلت خلال القرن السادس قبل الميلاد وما بعده لاستعادة مملكة يهودا ومن بعدها مملكة اسرائيل في اجتذاب اليهود للاقامة بأرض الميعاد المزعومة . ومن ثمة ، عاش اليهود قرابة ٢٥٠٠ سنة

من الاضطراب والهجرات والاختلاط العنصرى والتحول عن الديانة اليهودية ، وتمت آلاف الزيجات المختلطة . وبالتالى ، ألت باليهودية تطورات جوهرية واجتماعية وسيكولوجية وثقافية استطالت وامتدت على طول القرون والأحقاب حتى ليحق للباحث أن يتساءل عن المعيار الذى تقاس على أساسه أوضاع اليهود اليوم وعما يجمع بينهم :

هل يتبلور المعيار فى العنصر أم الدين أم الامة ؟

وهل بين اليهود وحدة وهل يكونون شعبا ؟

لقد تردى اليهود فى الانطواء على أنفسهم بفضل تعاليم عزرا - كما قررنا من قبل - فلما أن اندفعت الشعوب التى يعيشون بين طهرانيها لاضطهادهم لاصرارهم على تكوين مجتمع خاص بهم ، اشتدت حدة تقوقعهم وقاد ذلك الى نشوء تقاليد دينية خاصة داخل الطوائف اليهودية وبروز معالم ثقافية متميزة . ولقد اسفرت دراسات علم الاجناس عن حقيقة لا تمارى مبناها عدم وجود عنصر يهودى متميز . اذ يذكر التاريخ وقائع اقبال بعض عناصر أوروبية وهندية ومنغولية على اعتناق الدين اليهودى ، وظاهر من ذلك انتفاء الصلة - اطلاقا - بين يهود هذه المناطق ويهود فلسطين . ويكون الأولون أكثرية يهود العالم العظمى . أما ما يظهر على الجماعات اليهودية من ملامح ظاهرية مشتركة بين أفرادها ، فمردها طول اقامتهم بين طهراني جماعات مغلقة يتزواج أفرادها فيما بينهم ويتشاركون فى

أنماط للحياة متشابهة ، واعتناقهم منحى تفكير واحد
وممارستهم تقاليد متماثلة •

وبالاحرى ، ليست النفسية اليهودية المميزة مردها
العنصر أو الأصل أو العقيدة الدينية ، بل ترجع - أساسا -
الى الجيتو وحياة الجيتو (أى الى العزالية اليهود) •

ان نظرية الشعب اليهودى المتميز قد أصبحت خرافة
بفضل شيوع الاشتراكية والنزعة الليبرالية بما تفرضانه
من اندماج العناصر وتوحيدها فى سبيل غايات المجتمع
المشتركة •

ويقبل الكثيرون من اليهود الامريكيين على زيارة
اسرائيل بدافع من الدعاية الصهيونية • وهناك تضدهم
تناقضات مجتمع اسرائيل • فالاسرائيليون الذين ولدوا
ونشئوا بها ، أقل تمسكا بتعاليم الدين اليهودى مما كان
يتوقعه هؤلاء الزائرون • ولقد اطلعت على تصريح أدلى به
طائب يهودى أمريكى قرر فيه أنه قبل زيارته اسرائيل كان
يعتقد أن اليهود جميعا شعب واحد ، وهذا ما لم يجده •

أعنى أن الدين أو القومية لا تربط سكان اسرائيل
بعضهم ببعض ، لكن يربط بينهم المصير المشترك وسياسة
الدول الامبريالية التى تتوهم أن وجود اسرائيل حفاظ على

مصالحها في الشرق الاوسط ، كما تسند الصهيونية العالمية الوجود الاسرائيلي باعتباره تجسد الحفاظ على الذاتية اليهودية الذي تهدده عملية الاندماج التي تسير حثيثا في المجتمعات الاخرى .

ولعل أبشع تناقضات مجتمع اسرائيل حقيقة لا معقب لها مدارها تباين مجتمع اسرائيل وتنافره الى أبعد الحدود مع المنحى التفكيرى لمجتمع الشرق الاوسط . اذ تبرز اسرائيل في بحر خضم من الدول العربية التي يجمع بينها الدين واللغة والتاريخ المشترك والاماني والاهداف والآلام . فالدول العربية وحدة حضارية تضم مائة مليون نسمة وتنسب الى الحضارة الاسلامية التي تضم بين ظهرانيها أكثر من ستمائة مليون نسمة . فاسرائيل كائن شاذ لا يمكن أن يستقيم وجوده في قلب هذا المحيط الحضارى الاسلامي ، مع ما تمثله من مفاهيم سياسية واقتصادية وثقافية تناهض على طول الخط القيم العربية والاسلامية وتعاديها . وبكلمة جامعة ، تمثل اسرائيل تناقضا خطيرا في المجتمعات الآسيوية والافريقية لا مناص من القضاء عليه في نهاية المطاف .

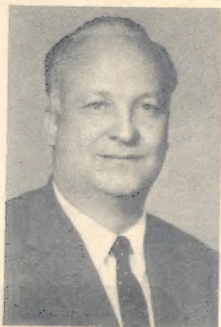
فهرس

الموضوع	الصفحة
الاهداء	٣
تقديم	٥
الفصل الأول : طابع التاريخ اليهودى	٧
الفصل الثانى : طبيعة الاله عند اليهود وتأثيرها	
الفكرى	٢١
الفصل الثالث : العنصر المصرى فى اليهودية	٣٣
الفصل الرابع : خصائص اليهودية	٥١
الفصل الخامس : الفكر اليهودى : بين القومية والعالمية	٧١
الفصل السادس : متناقضات مجتمع اسرائيل	٩٣

المطبعة الثقافية

رقم الابداع بدار الكتب ٢٣٣١/١٩٧٠

سورۃ ۵۰ قریش - مسوری - لبنان ۵۰ قریش - یمنی - لأوقین ۵۰ قلی - ایران ۵۰ قلی - الکویت
۶۱ قلی - البوادی ۵۰ یمن - لیا ۵۰ یمن - قطر ۵۰ یمن - الحسین ۵۰ قلی - عدن ۱۰۰
ست - اقصی ۵۰ س - أسرة ۵۰ ست - العزیز ۵۰ ستیم



فؤاد محمد شبل

- سفير مصر في اندونيسيا .
- أمضى في السلك الدبلوماسي المصري أكثر من ثلاثين عاما .
- من أهم مؤلفاته : مختصر دراسة التاريخ «ترجمة عن توينبي» في أربعة أجزاء - حكمة الصين «دراسة لمعالم الفكر الصيني منذ أقدم العصور حتى الآن» في جزئين - السياسات الاقتصادية الدولية - دراسة تحليلية للدستور السوفيتي - منهج توينبي التاريخي - حضارة الاسلام في دراسة توينبي التاريخي - حضارة الاسلام في دراسة توينبي للتاريخ - التنمية الاقتصادية - دراسات في اقتصاديات القارة الافريقية .

ca Alexandrina



0209481

يصلد قريبا :

اتجاهات الشعر الد

المكتبة الثقافية

(جامعة حرة)

● خلاصة الفكر القومي والإنساني

● تجعل المعرفة متعة تعمق الشعور

بالحياة ، وسلاها يساعده على

الإنصاف في معركة الحياة

يشرف على السلسلة

الدكتور شكري محمد عياد

أول يونيه ١٩٧٠

الثن ٥ قروش